

التراث فى رؤية عصرية

التراث فى رؤية عصرية

د. محمد حسن عبدالله



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة كتاب الشباب)

التراث فى رؤية عصرية

تأليف: د . محمد حسن عبدالله

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

التراث فى رؤية عصرية

الحيـــاة نهر يتدفق من المـــاضى الى المســـتقبل ، يحمل على أوجــه تجربة العصور ..

والحضـــارة ليست كراكمـــا كميا للمعرفة ، وانما هى انتقاء لعناصر الحياة ، والقوة والجمال .

وهـــذه قراءة عصريـــة لثلاثين كتابا من التراث ، ما بين السياسة ، والشريعة ، والاقتصـــاد ، والتاريخ ، والأدب ... حاول الكاتب فيها ان يثبت مبدأ :

توســيع آفـــاق الحـــاضر ، واكتشـــاف طريق المستقبل ، على هدى من الوعى العلمى بالمـــاضى .

استفتاح

تحاول هذه الصفحات المحـدودة ، أن تقدم الى القارىء ، ثلاثين كتابا مختلفا ، تنتمي كلها الى التراث العربي القديم ، لثلاثين من المؤلفين : المفكرين ، والأدباء والعلماء ، والفلاسفة ، والمتصوفة ، والمؤرخين ، وغيرهم .

وبقدر ما يدل هـذا العدد (وهنـاك أضعاف أضعافه لمن يبحث ويتوسـع) على غـزارة التراث ، وتنوعه ، وخصبه وعمقه ، بقدر ما يشير الى حجم الحيف والظلم الذي نلحق به حين ننظر اليه من زاوية أنه تاريخ مضى زمانه ، وحياة منقضية ، وأن أهميتـه الباقية تخص أولئك الذين يعنون بدراسـة المـاضي

وحده ، وأن هـذا التراث لا يصح ـ من منطلق أنه لا يصلح ـ أن يوجه حياتنا الحاضرة ، أو يفيد فى صنع المستقبل وترشيده .

ان الحضارة ليست تراكما كميا ، كما أنها ليست مجرد امتداد زمنى ، بقدر ما أن التقدم لا يعنى الهروب المستمر من المـاضى ، والتوغل العصبى الانفعالى نحو الجديد ، مهما كان هـذا الجديد . ان أعظم ما تصنعه الشعوب العريقة ذات الحضارة الممتدة : أن تظل حفية بماضيها ، فتنتقى من هذا المـاضى كل ما يصلح لأن ينمو فيصنع مستقبلهـا الخـاص ، المميز لشخصيتها ، المقوى لأركان وجـودها جـذورا وفروعا ، ماضـيا ومستقبلا . فى هذه الكتب الثلاثين ، التى اختيرت بقدر متوازن من التلقائية والتعمد ، توجه الجهد الى اختيار قضية واحدة ، مما يثير كل كتاب على حدة ، كى توضع تحت ضوء الفكر المعاصر ، لتكتسب فى أذهاننا قدرا

من الفهم الجديد ، يساعدنا أن نحسن الوعى بأهميـة هذه الكتب فى موقعها التاريخى بالنسبةلعصرها ، وفى أهميتهـا بالنسبة لقضـية دائمة ، هى صناعة الواقـع والمستقبل على أساس، من الوعى بالمـاضى •

وانا لنرجو أن تكون هـذه الغايـة ماثلة فيما استطاعت أن تحمله هذه الصفحات •

والله ولى التوفيق

أيها الولد المحب

١

أما الكتاب القديم ، فهو رسالة مختصرة ، وجهها الفيلســوف المتصــوف ، حجة الاســلام ، أبو حامد الغزالى ، الى أحد تلاميــذه ، واختار لرسالته هــذه عنوانــا قوى الدلالة ، هو « أيهــا الولد المحب » .
أما القضية الحــاضرة ، التى نستعرضها من خــلال هذا الكتاب ، فانها تتعلق بمعنى العلم ، وحدود العلم المطلوب لنجاة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ، وان تنفك هــذه القضية عن مطالب الحياة العامة ، حياة الأغيار ، أو الآخرين ، أو بتعبير أكثر عصرية ، وتمشيا مع المنهج العلمى ، الحياة الاجتماعية .

والامــام الغزالى غنى عن التعريف ، فهو أحد الفلاسفة العظام فى تاريخ الاســلام ، وأهم فلاســفة القرن الخامس الهجرى ، ذلك القرن الذى شــهد أعلى درجات النضج للحضارة العربية الاسلامية ، وبدايــة

عصر الانحدار والهبوط . والغزالى صاحب كتاب « احياء علوم الدين » الذى يعتبر موسوعة علمية شاملة لأحوال القلوب ، وأنواع الفرائض ، وأهداف الآداب الدينية ، له موقف من التصوف ، هو بدوره ذو صلة وثيقة برفضه للفلسفة وعلومها جميعا ، وارتفاع نجم الفقهاء ورجال الدين من الأشعرية بصفة خاصة ؛ وهم معرفون بعدائهم الشديد للعلوم الفلسفية . ولهذا، ولأسباب أخرى . نجد معنى التصوف عند الغزالى بعيدا عن الطابع التأملى ، والفكرى ، الذى يقترب به من الفلسفة ، وقريبا من العمل ، حتى عرف الغزالى بأنه مؤسس التصوف العملى ، اذ التصوف عنده يعرف بأنه عمل مبنى على العلم ، وأنه قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله ، وتحليته بذكر الله . هذا التحديد للتصوف ، ووسائله العملية فى اطار العبادة ، وأداء الفرائض ، يبرز أمامنا الأساس الفكرى الذى تستند اليه رسالة « أيها الولد المحب » .

أما مناسبة الرسالة ، فانها كانت جوابا على السؤال من أحد تلاميذ الامام ، وهذا التلميذ كما يقول فى رسالته الى شيخه ، قرأ أنواعا من العلوم ، وصرف ريعان عمره فى تعلمها وجمعها ، ثم يقول فى سؤاله الى شيخه الغزالى : « فالآن ، ينبغى أن أعلم أى نوعها ينفعنى غدا ، ويؤانسنى فى قبرى » . انتهى كلام التلميذ .

وأرى قبل أن نستخلص من الرسالة معنى العلم ، كما يراه الغزالى ، أن نظل على ذكر لمناسبة السؤال وصيغته . بل أن نظل على ذكر لحياة الغزالى نفسه ، ونوع النشاط العملى الذى قام به فى مراحل مختلفة من حياته .

بالنسبة للمسألة الأولى ، فان التلميذ يذكر فى رسالته أنه تعلم أنواعا من العلوم وجمعها ، وقضى فيها ريعان عمره . انه لم يحدد هذه الأنواع ، مما يسمح لنا بالتوسع فى دلالة هذه الاشارة . ويكمل ذلك بتحديد الاستفهام أو طلب الفتوى ، لقد أصبح التلميذ

يشعر بزحف الزمن ، وباقتراب الأجل بعد أن انقضى أكثر العمر فى طلب ، وتحصيل أنواع من العلوم . ولهذا انصب السؤال على العلم الذى ينفع فى الآخرة ، ويؤنس فى وحشة القبر !!

ان مخاطبة التلميذ السائل ، بنداء رقيق ، مثل : أيها الولد المحب ، يتضمن ما فى قلب الامام الغزالى من اعزاز لتلاميذه ، واعتزاز بأستاذيته ، ورغبته فى نقل تجربته الخاصة ، العملية والعلمية ، الى هؤلاء التلاميذ . ولهذا فان اجابته لهذا الولد المحب ، تتخطى — أحيانا على الأقل — حدود المطلوب للآخرة ، الى ما ينبغى أن يكون عليه السلوك ، العالم ، فى أى مجال كان نشاطه العلمى ، ومن هنا تأتى حملته على العلم المجرد ، أى العلم المعزول عن العمل ، فيقرر أن العلم فى ذاته لا ينجى صاحبه ، وأن الخلاص انما يكون بالعمل . يقول الامام الغزالى : « وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد ، مثاله لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية ، مع أسلحة أخرى ، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب ، فحمل عليه أسد عظيم مهيب ،

فما ظنك ؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها ؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع الا بالتحريك والضرب ، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها ، لا تفيده الا بالعمل » .

السؤال الخطير هنا يتعلق بما يقصده الغزالى من العمل . هل هو العمل فى حدود الشرع واطار ما يبيحه ؟ أو العمل بعلوم الشرع ذاتها ، دون العلوم الدنيوية الأخرى ؟ ! ومن الواضح أن الفرق شاسع جدا بين العلمين . وقد نجد فى كلام الغزالى ، فى هذه الرسالة ، ما يدل على كلا الاحتمالين ، مع ترجيح سنشير اليه .

ففى مكان يقول منكرا على تلميذه أن يهتم بغير العلوم الشرعية صراحة : « أى شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام ، والخلاف ، والطب ، والدواوين والأشعار ، والنجوم ، والعروض ، والنحو ، والتصريف ، غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال ؟ » وهذا كلام خطير حقا من الامام الغزالى ، واذا كانت

نزعته الأشعرية تدفعه الى استنكار علم الكلام ، القريب الصلة بالمنطق والفلسفة ، والذى توكأ عليه المعتزلة ، خصوم الأشاعرة ، فأى حجة يملكها الغزالى فى التهوين من شأن الاشتغال بالطب ؟ وهو يعرف أنه لا غنى للناس عنه ، ولا صلاح لحياتهم الا به ! بل كيف يرى الاشتغال بالنحو والصرف مضيعة للعمر ، وعليهما ، وعلى المعرفة بالاساليب عامة ، تتوقف المعرفة بالشرع ، والفقه لكتاب الله ، وعلى قول القدماء ، فان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب !! غير أنه يقول فى مكان اخر ، من نفس الرسالة : « ايها الولد المحب » : « ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة » . فى هذا الاقتباس نجد توسيعا للمعنى لا يحول بين المسلم الطائع العامل بمقتضى الشرع ، والاشتغال بالعلوم الدنيوية التى تتم بها مصالح العباد . فليس فى الطب ، أو الهندسة ، أو الشعر ، أو الفلك فى ذاته ما يجعل العلم به حراما ، أو مكروها ، أو ما يحول بين العمل به والنجاة فى الأخرة ، وانما الانحراف بهذه العلوم ،

كالانحراف بعـلوم الشرع ذاتها هو الذى يؤدى الى التهلكة . وفى مكان آخر من الرسالة ينبه الغزالى الى ما ذكره فى احيـاء العلوم : فيقول انه قد وجب على السالك أربعة أمور : أولها : اعتقاد صحيح لايكون فيه بدعة . وثانيها : توبة نصـوح لا يرجـع بعده الى الذلة ، وثالثها : استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق . ورابعها : تحصـيل علم الشريعـة قدر ما تؤدى به أوامر الله تعالى .

ان هذا الاقتباس غاية فى الروعة حقا ، والدقـة أيضا ، من حيث يربط العلم بمعناه الواسع ، بالسلوك الأخلاقى للعـالم ، ويربطهما معا بالقدر الضرورى من الوعى بالشريعة ، التى توجه العلم والسـلوك معا ، دون أن تحجر على نوع من العلوم ، الا ما أدى الى معصية ، أو انحرف به صاحبـه عن رسالته فى خدمة الخلق وحماية الحياة العامة . ان الحيـاة الشخصـية للامام الغزالى تعطى هذا الانطباع ذاته ، فقد اشتغل بالقاء الدروس فى المدرسـة النظامية ببغداد ، وبمسجد

دمشق الجـامع ، ثم ببيت المقدس وزار مصر ، وتجول في بـلاد فارس ذهابا وعودة ، فكانت له حيـاة عاملة متجددة ، وخبرات متنوعة ، ولا ينفي زهده وانقطاعه للعبادة في المرحلة الأخيرة من رحـلة عمره ، أنه كان صاحب رسالة علمية ، أداها على وجه صحيح .

الفرج بعد الشدة

٢

من القضـــايا الفكرية ، التى درجنـــا فى مستوى الدراسة الجامعية ، على تلقيها بالصمت ، أو القبول ، قضية الخيال عند العرب ، وما يترتب عليه من علاقـــة العرب وأدبهم بالفن القصصى ، أو عدم علاقتهم به .
فقد روج فريق من المفكرين الغربيين ، مستشرقين وغير مستشرقـــين ، أن القـــدرة على التفلســـف والاختراع والخيال المركب ، قاصرة على الجنس الأوربى وحده : أو الآرى . أما الجنس السامى ، ومنه العرب ، فانـــه عـــاجز عن التفلســـف ، لا ينـــدهش لشىء ، ومن ثم لا يخترع أيضا ، وخياله جزئى ، أقصى امتداد له أن يبتكر استعارة أو كناية أو تشبيها ، لكنه لا يستطيع أن يضع تصميما لعمل مركب ، كمسرحية أو قصـــة ، تتعدد فيهـــا المواقف ، وتتفاعل الشخصيات ، وتمضى فيها الحوادث المتنامية بين بداية ونهاية ، وفق مخطط

مدروس بدقة . هكذا تلقينا الحكم الصارم بأننا أمة محدودة الخيال . رغم أننا أصحاب ألف ليلة وليلة. النموذج الرائع للخيال الشرقى الزاهى . ولبلاد السحر والعجائب والرحلات الغريبة ، فى العصور الوسطى . وبرغم أن ساستنا ومفكرينا اذا ما تصدوا للدفاع عن بعض قضايانا فى المحافل الدولية الغربية . قيل لهم : أنتم أيها العرب خياليون ، وينبغى أن تفكروا بواقعية ، وتعترفوا بقوة الواقع !!

هكذا صرنا واقعيين ، عاجزين عن التخيل ، حين يكون الخيال فضيلة ، وصرنا ــ فى نفس الوقت ــ خياليين غير قادرين على استيعاب الواقع . حين يكون الخيال نقيصة !! وفى اطار الاتهام بالعجز عن الخيال المركب ، عرفونا فعرفنا أن تراثنا العربى لم يعرف الفن القصصى ، وأن غاية ما نقل عن العرب مما يقارب هذا الفن ، بعض الأخبار والنوادر ، التى تنقل عن مجالس الكبراء والعلماء ؛ دون أن تمر بمرحلة التأليف الأدبى . أى اعادة التشكيل ، لتحدد لها غاية جمالية وفكرية

أو اجتماعية ، مما ينبغي أن يكون للقصص من غايات ، تحمل الناس على قراءتها ، للمتعة والفائدة معا .

وبعد : فاننا نتخذ من كتاب قديم منطلقا لاعـادة البحث فى هـذه القضية الحاضرة ، والكتاب الذى نعنى يسمى : كتاب « الفرج بعد الشدة » لمؤلفه المحسن بن على ، المعروف بالقـاضى التنوخى ، وقد عاش هـذا القاضى فى عصر بنى بوية ، أى العصر العباسى الثانى ، ابان القرن الرابع الهجرى ، وتولى منصب القاضى فى البصرة ، وواسط ، والأهواز ، ولم تمنعه أعباء المنصب، وجـلالة القضـاء ، ورواية الحديث ، أن يلتفت الى القصص والأخبار ، فيجمعها ، ويرتبها تحت عنـاوين فرعية ، وفى اطار شـامل دل عليه عنوان الكتـاب : « الفرج بعد الشدة » . واننا اذ نتأمل هـذا العنوان نجده قد اختير بسليقة فنيـة بارعة ، فتركيب الحكاية داخل القصة ، أو داخل المسرحية ، لم يضف جديدا الى « الفرج بعد الشـدة » ، أو لنقل حسـب الترتيب المنطقى : شـدة يعقبها فرج ، حتى وان سـماها النقد

المعاصر : الأزمة والحل . أو اطلق عليهـا منظرو فن القصة القصيرة المعاصرون : الحادثة ولحظة التنوير .
بهذا الحس الفنى الرهيف انتخب القاضى التنوخى مئات من الحكايات والأخبـار والقصص ، المشروطة بوجود أزمة ، أو شـدة ، يعقبها فرج ، أو حل ، أو نقطـة تنوير ، تكون ختاما لها ، فأمدنا بسيل زاخر من صور الواقع النفسى والاجتمـاعى لمختلف طبقات المجتمـع العربى ، فى عصر المؤلف ، القرن الرابـع الهجرى ، وما سـبقه من قرون ، وما أجدر كتـاب الفرج بعد الشدة ، أن يضيف وضوحا وعمقا لصـورة المجتمع وحركته ، فى عصور لم تكن تعرف فيها مناهج الدراسة الاجتماعية ، أو النفسـية ، ولم تكن الطبقات الدنيـا موضع اهتمام جدى . فهذا الكتاب يملأ ثغرة واضحة فى مسار الثقافة العربية وهو ــ بصدد ما نحن فيه من مناقشة ، عن صلة العرب القدماء بالفن القصصى ــ خير ما يقدم كوثيقـة شاهدة على قيـام هـذه الصلة ، بقدر تجاوزت فيه المتاح للآداب القديمة ، المناظرة فى العصر ، وفى الشكل . من الطبيعى ألا تكون قصص

كتاب التنوخي جارية على مفهوم القصة القصيرة كما نعرفها اليوم ، اننا لو طالبنا بذلك نكون في غاية التعسف ، وانكار دور الزمن وتجارب الأجيال في انضاج التجربة ، والبلوغ بها الى غايات لم تكن معروفة في عصور سلفت . واذا كان العرف النقدي يعتبر تشيكوف ، وجي دي موباسان رائدين لفن القصة القصيرة ، فان هذا يعني أن عمر هذا الفن لا يزيد على قرن الا قليلا ، ويعني أيضا أن ما نطالب به القاص الحديث لم يكن موجودا في الشكل القصصي قبل هذين الرائدين : تشيكوف وموباسان . ثم .. علينا أن نعترف بأمر آخر ، اذا أردنا أن ننصف أنفسنا ، وننصف الحقيقة العلمية ، وهو أن لكل شعب ، ولكل ثقافة تقاليد وخصائص هي مما يميزها عن غيرها ، وتؤكد أصالتها . واذا فانه من الظلم الفادح للحقيقة أن نقول ان العرب لم يعرفوا الفن القصصي ، لمجرد أنهم لم يكتبوا قصصهم على طريقة موباسان أو على طريقة تشيكوف . فقد كانت لهم طريقتهم الخاصة .

لقد كان الارتباط بالواقع سمة أساسية ؛ من هنا جاء الحرص على ذكر السند ، أو راوية القصة ، وأسماء شخصياتها فى حالة أن يكون لهم وجود تاريخى ، كما أدى الارتباط بالواقع الى ايثار الطبقة الوسطى والطبقة الشعبية بكم زاخر من القصص والحكايات ، تكشف عن أسرار حياة تلك الطبقات ـ التى لم تنل حظها من العناية • وأخيرا نتوقف عند الجانب الفنى ، تشكيل المادة القصصية ، وهو العامل الحاسم الذى يجعل من هذه الروايات الاخبارية عملا فنيا ، أو مجرد سرد تاريخى • وقد أشرنا من قبل الى أن اختيارات القاضى التنوخى جاءت مشروطة بالأزمة والحل ، أو الشدة ثم الفرج ، كما أثر فى عنوان كتابه ، ومعنى هذا أن الاختيار قام على التركيب الفنى أساسا • ولكنه تجاوزه الى أسلوب الصياغة ، والى التصرف فى الشكل الفنى ، تصرفا ينبغى أن نعرف به ، لأنه من المنجزات ذات القيمة الفنية ، التى تنسب الى عصرنا ، ومع هذا نجدها فى مؤلفاتنا ،التى مضى عليها ألف عام • لقد استخدم

التنوخى الوصف والحوار والتحليل ، بالطريقة التى يستخدمها بها الكاتب القصصى المعاصر ، ولكنه أكثر من ذلك استخدام أسلوب : القصة داخل القصة . وهذا الأسلوب لم تعرفه القصص والروايات الا مؤخرا. وحين ابتكر براندللو أسلوب « المسرح داخل المسرح »، فى أوائل هذا القرن ، اعتبر عمله كشفا غير مسبوق . كما أننا نجد القصة التى تروى على التتابع ، من وجهات نظر مختلفة ، فيذكر الحكاية كما رآها شخص محدد ، والى المدى الذى رآه هذا الشخص ، ثم يبدؤها شخص آخر ، فيكشف عن مرحلة أخرى لم يعرفها الأول ، وتفسير مختلف يدعمه بما رآه ، ثم يظهر ثالث ، وربما رابع ، على النحو الذى نهجه نجيب محفوظ فى رواية واحدة من رواياته ، وهى « ميرامار » ، بل ان القاضى التنوخى اهتدى بغريزته الفنية الى استخدام الرمز ، وما يقرب من المعادل الموضوعى اذ نجد رجلا بائسا لا يملك غير طائر من نوع نادر ، حبسه عنده ولا يستطيع اطعامه ، وتقترب جرادة من الطائر ، فيعجز لضعفه عن اصطيادها ، وصاحبه يرقبه ،

وكأنما يرقب نفسه ، ويقرأ مصيره بين الرخاء والبؤس في محـاولة هـذا الطـائر الضعيف . وبعد أكثر من محاولة فاشلة ، يبتلع الطائر الجرادة ، ويرضى عن نفسه وينام . وهنا ينتعش الأمل في قلب الرجل ، ويخرج من بيته يبحث عن فرصة عمل .. ويجدها .

هذه بعض ملامح سريعة ، من كتاب قديم ، كتاب الفرج بعد الشدة ، للقاضي التنوخي ، وقد هدفنـا الى التنبيه لفضله بشكل عام ، وأثرنا من خلاله قضية حاضرة ، قضية طبيعة الخيال العربي ، وعلاقة العرب بالفن القصصي . ونرى أن هـذا الكتاب قمين بانصاف تراثنـا القصصي ، وتنوير فكرتنـا عن الخيـال عند العرب .

٣

من الطبيعي دائما أن ينقسم الرأى ، وتختلف المواقف تجاه القضايا الكبيرة . ومن هذا الباب الاختلاف حول أهمية التراث . فقد يكون هناك فريق يرى أن اعطاء التراث انتباها زائدا ، والتركيز عليه ، يصرف العقول والنفوس عن الابتكار ، واستلهام روح المستقبل وهو الأحق بالرعاية ، والأجل خطرا ، لأنه الأشد مساسا بحياة الناس فى الحال والمستقبل . وهذا الفريق يكفيه أن يوضح له أن الاهتمام بالتراث هو اهتمام بالشخصية التاريخية للأمة ، وتأكيد لتمايز هذه الشخصية ، وامتيازها فيما امتازت به ، وتعديل لمسارها بالنسبة لما قصرت فيه . وهذا يعنى أن وضوح الماضى هو فى ذاته وضوح الحاضر والآتى، وأن تغذية الجذور هى الطريق الى انضاج الثمار . قد نصادف فريقا آخر يقلل من قيمة التراث فى ذاته ، ويرى

أنه لا ينطوى على معرفة وقيم عالية . وهـذا التصور يجافى الحقيقة ، ويصـدر عن غير خبرة ، أو معرفة دقيقة ، ويكتفى بالظن بأن التراث العربى ليس أكثر من أشعار ونوادر وحكايات ، لا يصـدر عن فكر عميق ، ومعايشة وتجربة حية . ليس من النادر أن نواجه هـذا الزعم أو ذاك حـول التراث . ولقد تنبهت خواطرى واستعادت مثل هـذه الأقوال التى نصادفها بين حين وآخر ، حين قرأت كتابا للفقيه الأندلسى السكندرى ، أحد أئمة الفقة والزهد والفكر فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس ، وهو أبو بكر الطرطوشى ، وأما كتابه الذى أثار هـذه المشـاعر تجـاه التراث فيسمى : « سراج الملوك » وقبل أن نعرض لكتـاب سراج الملوك ، فاننا نتوقف هنيهة عند حياة صاحبه ، أبى بكر الطرطوشى ، لأن مادة الكتاب ، ومحتواه ، وأهدافه ، كلها لاصقة بالتجربة الخاصة لمؤلفه ، وثمرة مباشرة لنهج حياتـه ، وخبراته المتنوعة . لقد كانت طرطوشة ــ التى ولد بهـا أبو بكر ، ونسب اليها ــ قريبة من البحر المتوسط . لعل هـذا أغراه بأن يغادر

الأندلس الى بلاد المشرق ، لتحصيل مزيد من العلم •
وهكذا بعد أن تلقى الفقه على يد أبى الوليد الباجى
عالم سرقسطة ، غادرها الى مكة ، ليحج ، ويتعلم •
ومن مكة الى بغداد • فالبصرة ، ثم دمشق وانطاكية .
وأخيرا استقر به المقام فى الاسكندرية • فيها تزوج
وأقام الثلاثين عاما الأخيرة من عمره الذى امتد الى
سبعين عاما • وفى فترة الاستقرار الطويلة هذه ألف
عددا من الكتب المهمة ، على رأسها هذا الكتاب
« سراج الملوك » • لم نذكر رحلة الطرطوشى بين بلاد
المشرق ، على أنها معلومات عن حياته ، انها حياته
نفسها • لقد رأى فيها أحوال المسلمين ، وقرأ حياتهم
على الطبيعة ، وعاين علاقة الحكام بالحكام ، وعلاقة
الحكام بالمحكومين فى كل هذه البقاع ، وشاهد
من سلوك الناس ، وسلوك الذين يسوسون الناس
ما جعله يطيل التأمل فى كل ما رأى ، وما عاين ،
وما عايش ، ويحاول أن يستخرج المعنى أو القانون
الذى يحكم كل هذه العلاقات ، ومن ثم يحاول أن
يشخص • وهكذا يتبين لنا أن كتاب « سراج الملوك »

موضوعه السياسة والنظام الاجتماعى ، والأخــلاق •
هنالك أمر آخر اكتسبه الطرطوشي من رحلته ، فقد كان
الرجل مالكى المذهب ، لكنه فى سياحته المشرقية درس
على أيدى أصحاب المذاهب جميعا تقريبا ، وبخاصــة
الشافعية والحنابلة ، وهــذه بدوره قد اكسب فكره
مرونة وتسامحا ورغبة فى تأليف القلوب من تلاميذه ،
حتى لقد ابتدع نهجا فى التدريس ـ بالاسكندرية ـ
لم يكن مألوفا قبله • لم يكتف بالقاء دروسه بالمسجد
على عادة العصر ، وانما كان يصحب تلاميذه فى رحلات
خلوية الى البساتين خارج المدينة ، وهنــاك يتحول
الدرس النظرى الى ممارســـة ، ومعايشــة ، وتأثر
بالسلوك ، وقد استحسن التلاميذ منه هــذه الطريقة
وتضاعف عددهم حتى عد بالمئات •

ونعود الى « سراج الملوك » فنعرف أنه قضى فى
تأليفه عاما كاملا : كما تقول المصــادر القديمة ، ولكن
الحقيقة أنه قضى عمره كله ، أو جله يدخر التجــارب
والخبرات ، كى تصب فى النهاية بهذا الكتاب • لقد
عرفنا أن الاهتمام الأساسى فى « سراج الملوك » هو

السياسة وفن الحكم ، وما يجب أن يكون عليه الراعى مع الرعية ، وما عليه الناس من آخلاق بدءا بمن يحيطون بسدة الحكم ، من الساسة والوزراء والقادة والأعوان .
والتاليف فى فن السياسة والحكم قليل ، بل نادر فى التراث العربى ، لكنه قائم كحقيقة لها وزنها ، نذكر كتاب « التاج ، فى أخلاق الملوك » للجاحظ ، « والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك » للغزالى ، وكتاب الطرطوشى ، ثم « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن طباطبا . فلعل هذه الدراسات القيمة تكشف عن جانب من تاريخ العلوم عند العرب فى مجال هو من أحدث الحقول التى اتجهت اليها البحوث ، ونعنى : فن السياسة والحكم وأصول البروتيكول . واذ يسجل التراث العربى سبقا فى هذا المجال ، فانه يستحق الاشادة من خلال الوعى بالجهود المستنيرة التى سبقت اليه .

وكتاب الطرطوشى : « سراج الملوك » كتاب معيارى ، شأنه فى ذلك شأن آكثر الدراسات فى هذا المجال السياسى ، الذى يرسم اطارا لفن الحكم كما

يراه . وهـذه المعيارية لا تجعله يصف واقع الحال لنظم الحكم السائدة ، وانما يضع الأسس الأخلاقية المثالية التى ينبغى على الحاكم أن يراعيها فى سياسته للرعية . وليس ما يمنع من ايراد قصص وطرائف ونوادر عن ملوك سابقين ، بعد هذا التحديد المعيارى المبدأ الأخلاقى الذى حدده . لقد فعل الطرطوشى ذلك فى أربعة وستين فصلا ، هى التى تكون كتابه : سراج الملوك . نقتبس فقرة من هـذا الكتاب ، عن طبقات الرجال ، ويقصد أولئك الذين يتجمعون حول الحاكم . يقول : « اعلم ــ أرشدك الله تعالى ــ أن منزلة العمال من الوالى منزلة السلاح من المقاتل . فاجتهد جهدك فى ابتغاء صالح العمال ، واذا فقد الوالى عمال الصدق ، كان كفقد المقاتل السلاح يوم الحرب ؛ ويحتاج الى طبقات الرجال كما تحتاج الحرب الى أصناف العدة ، فمنها الدرق للاستجنان ، والسيف للمناجزة ، والرمح للمطاعنة ، والسهم للمباعدة ، والدرع للتحصن ، ولكل منها موضع ليس للآخر ، والرجال للملك كالأداة للصانع ؛ لا يسد بعضها مسد

بعض . كذلك طبقات الرجال للملك ، منهم للرأى والمشورة ، ومنهم لادارة الحرب ، ومنهم لمباشرة الحرب . ومنهم لجمع الأموال ، ومنهم لحفظها ، ومنهم للحماية ، ومنهم للكتابة ، ومنهم للجمال والفخر . ومنهم للمباهاة والذكر ، ومنهم للدعاء والوقار ، ومنهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة فلا يكمل للملك ملك ، ما لم يجمع هذه الطبقات » . هذا تنظير دقيق واف بأنواع الرجال حول صاحب الأمر ، ودور كل نوع ، وعلى هذه الطريقة تمضى أبواب « سراج الملوك » . غير أن الطرطوشى يتسم بأمر آخر ، هو مطابقة سلوكه لقوله وتأليفه . وقد كان له موقف فيه مواجهة وعنف مع الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه ، وقد وجه اليه موعظة تعد من نوادر الأقوال التى يبتغى بها صاحبها وجه الله ، وصلاح المسلمين . فبعد أن يضرب أكثر من مثل على نعم الله على صاحب السلطان ووجوب الشكر عليه لذلك ، يختتمها بعبارات محددة : « فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم » . القضية الحاضرة التى يثيرها كتاب سراج الملوك ،

لأبى بكر الطرطوشى هى ضرورة أن نعنى بالنظريــات السياسية الاسلامية ، وأن نضــع تحت الضــوء النظم العربية فى فن الحكم ، وجهود المفكرين العرب فى هذا المجال الذى يظن باحثونا جملة ، الا فى حالات قليلة ، أنه من مبتكرات العقل الغربى ، فى العصر الحديث . فهذه دعوة واشارة الى واحد من أهم المصــادر التى يمكن أن تؤسس علما جديدا ، وأن تعدل فى مواقفنــا من الفكر التراثى بصفة عامة ، وفى هــذا الحقل الخطير بصفة خاصة ، ولاشــك أن تنويره يجعلنا أقدر على تحليــل ماضــينا فى أوجهــه المختلفــة : الفكريــة ، والاجتماعية ، والحضارية بوجه عام .

الامتاع والمؤانسة

٤

« الامتاع والمؤانسة » هو الكتاب القديم الذى نعنى به — فى هـذه الكلمات — وكما هو واضح من عنوانه فان موضوعاته متنوعة ، وقد طرحت عن طريق السرد حينا ، والحوار حينا آخر ، فى مجلس الوزير أبى عبد الله العارض ، وهدفها واحد ، هو الامتـاع والمؤانسـة ، لهذا الوزير ، وجلسائه من خاصـته . وسيكون مجلس السمر هـذا بمثابة مفتاح للقضـية الحـاضرة ، التى ينير الكتاب طريقنـا اليها . مؤلف الامتاع والمؤانسة هو أبو حيان التوحيدى ، واحد من أفذاذ الفكر والأدب والفلسفة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وهذا القرن الرابع يمثل قمـة ما بلغته الحضـارة العربية الاسلامية اذ كانت خمائر وبذور القرون السابقة قد آتت ثمارها يانعة ، وعلى الرغم من الضعف السـياسى والعسكرى الذى أصاب

دولة الخلافة فى تلك الفترة ، فان هذا الضعف لم يكن بلغ درجة التحلل أو السقوط . كان البويهيون أقويا محافظين على كيان الدولة ، ولم يكونوا عربا ، ولكنهم زينوا مجالسهم بالمفكرين والشعراء ، واستوزروا أهل الفصاحة واللسن ، ومحبى الثقافة والفكر ، ومنهم أبو عبد الله العارض الذى شهد مجلسه مناظرات ومسامرات راقية ، كان أبو حيان التوحيدى نجما من نجومها وكان الامتاع والمؤانسة ثمرة من قطوفها الشهية . ولأن الكتاب من كتب الأسمار وتبادل الحوار ، فان مادته خضعت لتقسيم وتنوع يتناسب وهذه الظروف الخاصة . فجاء فى ثمانية وثلاثين سمرا ، جرت فى ثمان وثلاثين ليلة ، كما جاءت هذه الأسمار متنوعة فى موضوعاتها ، فهى تتجدد كل ليلة على نحو مختلف ، بل انها قد تجمع فى الليلة الواحدة بين أكثر من موضوع ، تربط بينها مناسبة عامة ، مجرد الاستطراد ، كما يأتى بعضها دون مناسبة أصلا ، الا الرغبة فى التنويع ، ونفى الملل عن

حاضرى المجلس ، ودقة الملاحظة ، واتساع المعرفة لدى أبى حيان .

لقد تنوعت الأسمار فى « الامتاع والمؤانسة » بدرجة تجعل من الصعب علينا أن نكتشف طابعا أو تصنيفا محددا لهذا الكتاب ، اذ ينطوى على صور رائعة لشخصيات من مشاهير العصر ، صورها أبو حيان من زاوية الرضا عنها أو السخط عليها ، تصويرا مثيرا ، لعله كان وراء الحظ القاسى الذى واجهه أبو حيان فى حياته ، اذ أن غمزاته ولمزاته البارعة لم تجعل له صديقا ، فخسر نفسه وربح فنه ، وكما حاول أن يرسم صور الأشخاص بخطوط قليلة صادقة الايحاء، كما يفعل الرسام الماهر بقلم الفحم مثلا ، فكذلك رسم صورا للشعوب ، للعرب والفرس والهند والروم ، تدل على اتساع معرفته بطبائع البشر ، وقوانين التطور ، وعلاقة البيئة الجغرافية بأخلاق وخصائص أهل البيئة . كما طرح أبو حيان أمورا وقضايا فلسفية، فعرض للنفس ، ماهيتها ، وسر خلودها ، ومعنى الجبر والقدر ، واخوان الصفاء ، وأسرار فلسفتهم . كما

يعقد عددا من المقارنات ، أو المحــاورات شاهد بعضها وأحس بأهميته فنقله الينا ، وكان المصــدر الأول لهذا الحفظ ، ونشير بخاصـــة الى تلك المحــاورة المشهورة بين أبي سعيد الســيراف ، وأبي بشر متى بن يونس القنائي ، وقد جرت فى مجلس الوزير ابن الفرات ، عن الأصل فى العلوم وفى حفظ ملكة التفكير ، فرأى متى بن يونس أن هذا الأساس موجود فى المنطق اليونانى . فلا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والصــدق من الكــذب ، والخــير من الشر ، والحجــة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بالمنطق . وقد تصدى السيرافى لهذا الزعم العريض ، حتى انتهى بالمحــاورة الى أن العقل اكبر من المنطق ، وأن المعانى مشاعه بين الأمم وليست وقفا على اليونان ، فضــــلا عن ارسطــو صاحب المنطق ، ثم ينتهى الى أن دراسة اللغة لا مندوحة عنها ، وهى باب للفهم الصحيح ، فبغير مــادة الفكر لن نصل الى حل لأية مشكلة ، والمنطق الصــورى المجرد لن ينهى اى خــلاف بين متناظرين ، ولن يوصل

الى يقين ، وخلاصة رأى السيراق أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة لن تجدى نفعا .

ومهما يكن من أمر فان هذه المحاورة على خطرها ، لم تكن الوحيدة فى الامتاع والمؤانسة ، فهناك أخرى عن علم الحساب والبلاغة ، أيهما أنفع ؟ وثالثة تقوم على مناظرة بين الشعر والنثر . هذا فضلا عن معلومات شتى عن أنواع من الحيوان ، مع تنظير بالانسان أرقى فصائل الحيوان ، وهذا التنظير يشمل النواحى العضوية والسلوكية . كما اهتم بأهم قضايا عصره ، وهى العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ولم يكن اهتمامه بفلسفة اخوان الصفاء ، والصراع بين علوم يختلف المروجون لها ، وتصويره لرجالات عصره وطبائع الأمم المتصادمة على قيادة الأحداث الا اهتماما مستمرا بأهم قضايا العصر من أكثر من زاوية . ونكتفى بمثال واحد لتصويره لواحد من مشاهير العصر ، وهو الوزير ابن عباد . ماذا قال عنه أبو حيان، بلسانه اللاذع ؟ : « ان الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان » . ثم يجاوز هذا الاجمال

الذى يوهم المدح والرضا ، الى تفصيل جارح .
فابن عباد محب للثناء الى درجة الاسراف والى درجة التزييف ، حتى انه يمدح نفسه بشعر ، ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، ولهذا فانه انسان مريض النفس ، جمع بين العقل والحمق • وحين يعرض أبو حيان الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف ، يرى أنها تشترك جميعا فى الفطرة الواحدة : ثم تأتى بعد ذلك أوجه الاختلاف ، فاليونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم ، ويعنى به الخيال ، والعرب ميزتهم الفصاحة والفرس السياسة ، والترك الشجاعة ، ثم هو يربط هذه المزايا أو المميزات بالبيئة الطبيعية والنظام الاجتماعى الذى تعيش فى ظلاله أمة معينة ؛ فعن تميز العرب بالفصاحة ، يقول : « ان العرب أهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس ، احتاج كل واحد منهم الى فكره ، ونظره ، وعقله » ثم يمضى مع هذا الربط بين الانسان والبيئة لينتهى الى تحديد الخصال العربية الرفيعة ، التى كانت نتيجة مباشرة للمعيشة فى الصحراء، وللنظام الاجتماعى الذى انتظم وجودهم •

وبعد ، فان المـادة المتنوعة فى الامتاع والمؤانسة أعزر من أن تحيط بها هـذه الكلمات المتعجلة ، التى لن تغنى عن العودة الى الأصـل ، وكل ما ترجـوه أن تثير الرغبـة فى الاتصـال بالكتاب نفسه ، بعد اثارة الحديث عنه . غير أننا : ونحن فى عصر نهضـة عربية ، تتلمس الى التجديد طرقا شتى ، وتبحث عن صيغ جديدة فى كل المجالات ، تتلفت حولنا نبحث عن أدب المسامرة ، فلا نكاد نجده . لقد تحول الى مسخ مشوه أو يكاد . ان المسامرة فى زماننا ترادف الفكاهة والابتذال ، فاذا ارتقت عن ذلك فهى مجرد مداعبات وطرائف ، لا ترقى الى مخاطبة العقل الناضج والذوق المثقف ، والنفس الرفيعة . ولسنا نشـك فى أن هذا النوع من المجـالس الذى عاشه أبو حيـان ، فى ظل الوزير أبى عبد الله العارض ، له أشباه كثر فى زماننا ، فلا تزال الأمة بخير ، ولا تزال العقول تتحـاور وتبدع وتطرف بكل جديد نادر ، ولكن شيئا من ذلك لا ينشر على الناس ، أو لا ينشر الجـاد منه على النـاس . ان رواج الفكاهة والمجون وحكايات الخـلاعة جعل

الجادين يحجمون عن نشر تجاربهم ، وحوارات مجالسهم ، وما أحوجنا الى ذلك لبناء العقل العربى الحديث ، ولتصحيح الفكرة عن المجالس ، ولنشر الجدية والذوق العام فيما يقرأ الناس ، ولتصويب الفكرة عن الجدية ذاتها : فليس الجاد بالضرورة هو المتجهم الثقيل . وقد كان أبو حيان فى الامتاع والمؤانسة مثلا بازغا للجدية ، ولروح الفكاهة والانسانية وسعة الأفق ، فى نفس الوقت .

تذكرة اولى الألباب ، والجامع

للعجب العجاب

ه

منذ عدة أعوام ، احتفل العالم الاسلامى باستهلال القرن الخامس عشر الهجرى . والمسلمون ـ فى كافة أنحاء الأرض ـ فى عصر نهضـة وطموح لتأكيد دورهم التاريخى الذى قاموا به من قبل ، تجاه الانسانية جمعاء، ولهـذا تخلت احتفالاتهم بالقرن الجديد عن الاثـارة الخطابية ، الى الدعوة العملية ، وتنظيم الجهد لتنوير الفكر المعاصر ، عند المسلمين وغير المسلمين ، فيما يتعلق بروح الاسـلام وأثره العظيم فى توجيـه الحضـارة الانسانية ، وتنقيتها ، لتكون خالصة لله سبحانه ولصالح البشر كلهم ، حين كانت هـذه الحضارة الاسـلامية القمة والقيادة الفاعلة فى العالم القديم . وقد كان من نصيب الكويت أن احتضنت فـكرة العنايـة بالطب الاسلامى ، فأقيم له أكثر من مؤتمر ، نشرت أبحاثهـا مع ايضاح للفكرة والاطار الواسع الذى تشمله . وهو

توجيه موفق . فللطب فى الاسـلام تاريخ عريق ، وكتاب ابن أبى أصيبعة ، المسمى « طبقات الأطباء » ، يدل على ما كان الطبيب العربى المسلم أو غير المسلم . فى ظل الحضـارة العربية الاسلامية . من اطلاع واسع على أسرار الطب فى الحضارات السابقة ، وبخاصـة عند اليونان والرومان ، وما كان له من مبتكرات فى مجال العلاج بالعقاقير . وبالجراحة أيضا ، وما تمتع به من مقدرة على اكتشاف المرض وتشخيصه .

فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته وزارة الصحة بالكويت ، متعاونة مع المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، نجد عددا من البحوث يحـاول أن يحدد مفهوم الطب الاسلامى . من ذلك ما حاوله بعضهم من الاجابة على تساؤل متوقع : ما هو الطب الاسـلامى ، هل هو الطب القديم الذى لايزال يمارس فى الشرق على أيدى من يطلق الناس عليهم لقب حكيم ؟ هل هو الطب الطبيعى الذى يعتمد أكثر ما يعتمد على الأعشاب ، واتباع النظم الغذائية وتكييف أسلوب الحيـاة ؟ هل هو الطب الذى يقتصر على التعاليم الدينية ، المتصـلة

بالصحة ، التى نجدها فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ؟ هل هو شفاء المرض عن طريق الايمان والدعاء وحسب ؟ بعد طرح هذه السلسلة من الاحتمالات يأتى الجواب : فالطب الاسلامى يشمل كل هذه الجوانب ، وهو طب رائد ، لأنه موجه وهادف، ولأنه يرتكز على الايمان والأخلاقيات السماوية ، ولأنه طب شامل ، يهتم بالجسد والروح ، ويهتم بالفرد والمجتمع ، ولأنه — أخيرا — طب كونى ، يمتد الى كل المصادر النافعة يطلب عونها ويتقدم الى كل البشر يؤدى خدماته لصالحها ، ولصالح العلم .

هذا اذا هو الاطار العام للطب الاسلامى ، وقد لا يختلف فى شىء عن اطار الطب الذى لم يطلق على نفسه صفة الاسلامية . وهنا يكون الفرق فى اعلان المبدأ ، والعمل على تحقيقه من منطلق ايمانى .

هذه توطئة ضرورية ، أثارها كتاب قديم ، يحظى بقدر كبير من الشهرة عند المشتغلين بالتراث ، والمهتمين بالتاريخ العلمى للعرب ، والمعالجين بالوصفات الشعبية

التي تعتمد على ما يبيع العطار من نبات الأرض ، ومستخلصات الحيوان والمعادن ، ويرونه أكثر أمانا من المركبات الكيميائية ، التي وان بدت ــ في رأى هذا الفريق ــ أقوى حسما للداء ، فانها لا تخلو من خطر ، يسمى علميا : الآثار الجانبية . الكتاب الذى نعنى عنوانه : « تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجاب » من تأليف داود الأنطاكى ، والاسم الشائع للكتاب هو : تذكرة داود !! لقد اسبغت التراجم القديمة على داود أعظم الألقاب ، تقديرا لعلمه وفنه فى الطب ، فهو الحكيم الماهر الفريد ، والطبيب الحاذق الوحيد ، أبقراط زمانه وجالينوس أوانه . ولا تنم هذه الأوصاف على شيء من المبالغة ، فكتاب التذكرة يدل على احتواء هذا الشيخ الأنطاكى ، لعلوم سابقيه من عظماء الأطباء ، من اليونان ، والرومان ، والسريان ، والفرس ، والعرب ، ولديه من أمانة العلم ما يجعله يسند كل رأى أو ابتكار الى صاحبه . وقد كان داود ، صاحب التذكرة ، يملك عقلية علمية منظمة ، ومعرفة واسعة تتجاوز ما نطلب من

الطبيب أن يعرفه فى أيامنا ، فهو خبير بأنواع النبات ، أو لنقل النبات الطبى بخاصة ، ومثل ذلك يقال عن الحيوان ، وعن المعادن أيضا ، وخبرته تشمل هذه الأنواع مفردة ، ومركبة ، كما تشمل كل ما يتعلق بها .
فيقول مثلا عن « الأطريال » : تعريبه : رجل الطير ، ويسمى أيضا جزر الأرض ، وهو كالشبت ساقا ، والخلة صفة ، لكنه مفرق ، وزهره أبيض ، يخلف بذرا الى الغبرة ، حاد حريف حر الطعم ثقيل الرائحة ، الى طول مشرف الأوراق ، يقطف من نصف أيار ، الى نصف حزيران ويغش بالخلة ، ويعرف بالحب ، وبالبقدونس ، ويعرف بنتن المرارة ، يستأصل شأفة البلغم ، وينقى الكلى والمثانة ، ويفتت الحصا شربا بالعسل ، ويجفف الجروح ضمادا ، أما نفعه من البرص ، فأمر يقينى قد تقرر » .

بمثل هذه الاحاطة المركزة يعرض داود الأنطاكى ، فى تذكرته ، لعشرات من أنواع النبات ، والحيوان ، وأكاسيد المعادن ، مبديا اهتماما الى الصفة والصورة ، والأثر ، والغاية ، وهذا ينبع من منهج علمى له نصيب

وانسح من الدقة يزاول بوعى . اذ يقرر فى احدى قواعده أن لكل موجود أربعة جوانب : مادية وهى الأصل ، وصورية وهى العين ، أو الماهية ، وفاعلية وهى المؤثرة ، وغائية وهى جواب لم وجد ؟

فى هذا الكتاب الطبى علم غزير ، ومعرفة تنتمى الى عصرها ، وما قبل عصرها ، وهو يعطى صورة مشرقة عن الطب الاسلامى ، فى دقته العلمية ، وانفتاحه وافادته من تجارب السابقين من غير المسلمين ، وفى عنايته بالمبدأ الأخلاقى للطبيب ولعملية التطبيب ذاتها ، وفى اهتمامه بالجوانب النفسية المعنوية للمريض ، ويكفى أن نذكر من كلماته فى مقدمة كتابه « التذكرة »: ينبغى لهذه الصناعة الاجلال والتعظيم والخضوع لمتعاطيها ، لينصح فى بذلها ، وينبغى تنزيهه عن الأراذل ، والضن به — أى بالطب كعلم ومهنة — على ساقطى الهمة ، لئلا تدركهم الرداله عند واقع فى التلف

فيمتنعون ، أو فقير عاجز ، فيكلفونه ما ليس فى قدرته » • ويردد عهد أبقراط على تلاميذه ، وما يدعو اليه من التزام خلقى ، ونزاهة علمية •

•

فى كتاب تذكرة داود ملاحظات علمية دقيقة ، وتعاريف واصطلاحات ، وأساليب فى المعالجة ، تحتاج الى مراجعة ، بل فيه خرافات تسربت اليه من خلال الرأى الشائع بين الناس • وهذا كله فى حاجة الى جهد جديد ، نحدده فى كلمات : اننا لا نستطيع أن ندعو الى تغيير فى التراث الذى انحدر الينا من أجدادنا، فالتغيير يعنى التزييف ، ولكن هذا التراث ــ اذا شئنا له الحياة والاستمرار ــ لابد أن يخضع لعملية انتقاء • وتمحيص ، وتعليق ، تحدد مكانه التاريخى ، ومكانته فى عصرنا ، وما يمكن أن يستمر من انجازاته فى عصره الذى انقضى • والطب الاسلامى كقضية حاضرة ، ينبغى أن تستمر العناية به بالأسلوب العلمى

الذى كان البداية • ومن هنا تكون العودة واجبة الى تراثنا الطبى ، بعرضه على محك المعرفة العصرية ، ليس لتنوير فكرتنا عن التاريخ العلمى للعرب والمسلمين، وحسب ، وانما لاستبقاء العناصر الصالحة من هذا العلم ، وبخاصة أن العلم الحديث لم يتمكن الى الآن من حل معضلات الوجود الانسانى ، روحا وجسدا ، وهذا يعنى أن البحث عن بعض الحل فى ماضى التجربة الانسانية ، ليس بالضرورة رجوعا الى الوراء •

رسالة التوحيد

٦

« رسالة التوحيد » للأستاذ الامام ، محمد عبده.
هى الكتاب القديم الذى نختاره فى هذه الوقفة مع كتاب قديم ليفتح آفاق الحاضر ، ويجدد علاقتنا بتراثنا العظيم . وهذا الكتاب « رسالة التوحيد » يثير فى الخاطر أكثر من مدخل ، يؤدى الى القضية الحاضرة التى نؤثرها باهتمام . فمؤلف الكتاب ، محمد عبده ـ رحمه الله ـ قد توفى منذ ثمانين عاما كاملة ، كما أنه ألف « رسالة التوحيد » منذ قرن كامل أيضا ، اذ فارق الامام أستاذه وصديقه جمال الدين الأفغانى فى باريس عام ١٨٨٥ ميلادية ، واتجه الى بيروت ، منفيا حتى يؤذن له فى العودة الى وطنه . وفى بيروت شرع فى القاء محاضرات فى علم الكلام ، كانت النواة للكتاب ، الذى صدر بعد ذلك . واذا فان الكتاب ـ الرسالة ـ لا يعد من التراث ، لأن مؤلفه وان لم

يكن من المعاصرين فانه ليس من القدماء . انه من علماء العصر الحديث ، بل من مؤسسى الفكر العربى فى هذا العصر الحديث . ومع هذا فاننا نختار « رسالة التوحيد » وندافع عن هذا الاختيار ، اذ أنه مما يؤسف له أشد الأسف أن وسائل التسلية الحديثة ، الزاخرة بكل ما يبهر العين ، ويسحر الأذن ، ويشغل كافة الحواس والمشاعر ، هذه الوسائل قد شحنت الناس ، وبخاصة الأجيال الجديدة ، وصرفتهم عن المعرفة عن طريق القراءة ، وبهذا تضاءل حظ الكتاب الجاد من الانتشار ، مطبوعا ، ووصوله عن طريق هذه الوسائل المستخدمة أشد ضآلة ، وبهذا يتحول الى تراث وهو لايزال جديدا ، وينسى أمره قبل أن يشتهر ذكره ؛ ولقد كانت لفتة ذات مغزى أن بعض المجلات الفكرية الجادة ، استحدثت بابا تنشر فيه فصولا من هذا التراث الحديث لكتاب ومفكرين معاصرين ، أو أقرب الينا عهدا من الأستاذ الامام ، مثل زكى مبارك وأحمد أمين ، ومصطفى صادق الرافعى ، والمازنى ، وهؤلاء جميعا ، على جلالة الدور الذى أدوه لأمتهم

وثقافتهم العربية ، لا يكاد الجيل الجديد من المتعلمين أن يقرأ لهم شيئا ، بل لا يكاد يعرف أسماءهم .

لقد تضمن كتاب « رسالة التوحيد » أكثر من موضوع ، هو بذاته قضية حاضرة ، لأن الامام محمد عبده ، كان مفكرا عميق الغور ، وكان شديد التواصل مع قضايا عصره ، وهي قضايا عصرنا ، بل انها قضايا كل عصر ، لأنه يمس جوهر علاقة الانسان بخالقه ، وعلاقته بالدين كمنظم للعقيدة والسلوك ، ومدبر للنظام الاجتماعي ، ثم أخيرا ، وربما أولا ، وقبل كل شيء : علاقة الانسان بنفسه ، بضميره ، بفطرته ، بارادته ، ومسئوليته عن كل ما يأتي ويدع من أعمال .

لقد آثرت هذه القضية الأخيرة من بين ما يثير « رسالة التوحيد » من قضايا ، واني لأظن أن قضية « موقع الانسان بين الطرفين المتباعدين : الجبر والاختيار » من القضايا التي لا يتوقف البحث فيها ، عنيت بها الفلسفات قديما وحديثا ، واهتم بها الأنبياء ، وقالت فيها الكتب السماوية كثيرا ، ومع كل

ما هو مسطور ومعروف فان سؤال الفتيان فى حصص التربية الاسلامية فى المدارس ، وسؤال الشباب فى الجامعة بمناسبة وأحيانا بغير مناسبة ، عن حظ الانسان من المسئولية تجاه ما يصنع ، لايزال يتردد ، ويبحث عن جواب ، وقد تولى الأستاذ الامام تقديم اجابة شافية ، فى رسالة التوحيد ، فضلا عن أن حياته الشخصية ، وجهاده العلمى النبيل ، يقدمان اجابة معضدة لما سطره فى كتابه ، فكأنما كان محمد عبده يعيش فكره ، او يفكر بتجربته المعاشة ، وهذا شأن العاملين من العلماء ، تتطابق الأقوال والأفعال ، ويتحد المعتقد الباطن ، والرأى الظاهر المعلن بين الناس .

لقد التحق محمد عبده بالمعاهد الأزهرية ، ثم بالأزهر ، مرتين ، وفى كل مرة ، كان يشعر بأنه غير مستطيع أن يتجاوب مع طريقة التدريس ، والمواد المختارة للتدريس ، فكان ينصرف عن التعليم يائسا ، ويقرر اكتساب رزقه من عمل آخر ، حدث ذلك فى بداية شبابه حين التحق بالجامع الأحمدى بمدينة طنطا ، ويبدو أن المنهج الذى كانت تطبقه معاهد الأزهر كان

عسيرا ، دفع الصبى محمد عبده الى الانصراف عن الدراسة والعمل بالزراعة ، ولكن .. حدث أن التقى بأحد أخوال أبيـه ، وهو رجل صـوفى طيب القلب . استطاع من خلال حنانه الأبوى ، وسـلامة ادراكه للمعانى الروحية فى الكتب القديمة ، أن يقنع الفتى بالعودة الى الدراسـة فى المعهد . ويتكرر الأمر نفسه بعد أن يلتحق الشاب محمد عبده بالأزهر ، ويقضى فيه أكثر من ثلاث سنوات ، أحس أنه لم يجن منها ما كان يريد . كان يتوق الى فكر حى جديد . فانقطع مرة أخرى عن دروسـه وانتابته أزمة نفسية أوشكت ان تدفع به الى العزلة والزهد ، ثم يظهر الشيخ الصوفى مرة أخرى ليأخذ بيده الى النجاة ، عن طريق التأمل والفكر الموصـل الى العمل . وحين التقى الأستاذ الامام بجمال الدين الأفغانى ، كان موقفه فى تجديد الفكر الاسلامى قد تحدد ، وأصبح واحدا من العمد التى ينهض عليها هـذا الفكر . فأين تقع حرية الارادة من رحلة حياة الامام ؟ تلك الرحلة العجيبة التى أوشكت أن تتوقف وتصـل الى الافلاس مرتين ، ثم انتهت الى

هذا النور الباهر الذى نجده ماثلا فى سيرته ، وفى كتبه على سواء ؟ !

كيف يَتبْسّط ، ويتَبَسَّط محمد عبده ، فى رسالة التوحيد : علاقة الانسان بالخالق سبحانه فى اطار حرية الفعل الانسانى ؟ يقول : « كما يشـــهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتـــاج فى ذلك الى دليل يهديه ، ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بارادته ، ثم يصـــدرها بقوة ما فيه ، ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده ، فى مجافاته لبداهـــة العقل » ، هكذا يعتمد الامام على الملاحظة العملية ، وتحريك الفطرة ، وشـــهادة الحواس . وما يصـــدق على الفرد يصـــدق على الجماعة ، وهنا يظهر الفعل الانسانى حرا بلا قيد ، يفعل ما تمليه الارادة ، وما تدفع اليه الرغبة والأمنية ، غير أن للكلام بقيه : هى التى ستحدد أين تقع ارادة الانسان من ارادة الله سبحانه . يقول صاحب رســالة التوحيــد عن الأعمــال الحرة للانســان :

« ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه أنه كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، وينقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى ، ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه ، فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ، ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل — يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره ، سلطانا ، لا تصل اليه سلطته » .

هذه صفحة قديمة ، أو كالقديمة ، تعرض لقضية قديمة حاضرة ، بأسلوب سهل مقنع ، بعيد عن الخطابية

والمبالغة ، قريب الى الفطرة وحـــكم الواقع المشاهد .
فما أحوجنا الى بعث تراثنا الحديث ، الذى انزوى بعيدا عن العيون أمام مزاحمات غير مجدية ، مع شـــدة الشوق اليه ، ونفعه المؤكد ليس لشفاء القلوب الحائرة، وحسب ، وانما ليستمر التواصـــل الفكرى والروحى بين أجيال المفكرين من أمتنا ، وأجيال المريدين لهم فى كل عصر قادم .

كتاب التيجان : فى ملوك حمير

٧

من أين تبدأ النهضات القومية ؟ أو كيف تبدأ ؟ هذا السؤال شاغل المفكرين منذ أوائل عصر النهضة العربية ، وقد جرى القول على اعتبار مطلع القرن التاسع عشر بداية لها ، اذ شهدت تلك الفترة أول تواصل بين بلادنا العربية ، وأوربا ، التى سبقت أشواطا فى مضمار التقدم العلمى ، والنظام الاجتماعى ، والعمرانى ، ومن ثم لا تثريب على مفكرينا الذين رأوا أن سر التقدم يكمن فى أن ننسلخ عن ماضينا ، ونخلع نيره الثقيل ، ونمضى خلف أوربا ، نحاول اقتناص ما يمكن اقتناصه من تجربتها الظافرة . هذا القول البراق ينطوى على أخطاء قاتلة ، ويكفى أنه يجعل من أمة ذات تراث عريق ، تابعة ومقلدة ، ومتأخرة الى الأبد عمن تقلد ؛ لأننا لم نعهد أن يرتفع التقليد الى درجة الأصل من الاتقان . من هنا وجدت اجتهادات

اخرى أكثر وعيا بطبيعة الصراع الحضارى بين الأمم ، وأبعاده ، وأسلحته ، ونتائجه • وهكذا ظهر مصطلح جديد ، وخطير ، هو « شخصية الأمة » • وليس القصد من الحفاظ على شخصـــية الأمة ، أن تظل تتمايز عن غيرها من الأمم وحسب ، ان هـــذه غاية جليلة أيضا ، وتستحق كل ما يبذل فى سبيلها من بحث علمى ، وانفاق مادى ، وحماية روحية ، وحفاظ على التراث • ان هذا التمايز قدر الأمم التى تملك تاريخا عريقا يمتد لآلاف السنين كجذور حية فى تربة الحضـــارة الانسانية الشاملة • ان هـــذا التمايز يتطلب أن نعود الى ماضينا الزاهر ، بعين الناقد ، ورؤية الخبير بمكامن القوة ، وعوامل الانحلال ، نعود الى هـــذا المـــاضى الزاهر لا لنعيده الى الحياة • ان الحياة نهر يتدفق ، لا يكف عن الجريان ، وقـــانون الأنهـــار يأبى أن يعود مصب النهر الى منبعه • والنهضات القومية ليست أمنيـــات ، انها تقوم على أســـباب موضوعية ، وبشروط أو تحت ظروف •• الزمن أو طبيعة العصر جزء أساسى فيها ، واذا كان الزمن يمضى ، كموجات النهر الى غير عودة ،

فان هــذا يعنى أن شروط النهضــة تتغير ، أو تتطور ، ما بين عصر وعصر ، وأرض وأرض • واذا فان احيــاء المــاضى ، أو الحفاظ على التراث ، أو الحرص على تمايز الشخصية القومية لا يعنى بالضرورة أن نلوى عنق الواقــع فننظر الى الوراء بدلا من أن ننظر الى الأمام •• انه يعنى القيام بالتحليل العلمى لهذا الماضى، وانتقاء العنــاصر الصالحــة فيه للبقــاء • فاذا كان السؤال : من أين تبدأ النهضات القومية ؟ فان الجواب الذى نراه : تبدأ بتصحيح النظر الى المــاضى وتجديد الحكم عليه برؤية علمية موضوعية • ان هذا التصحيح، وتلك الرؤيــة العلميــة الموضــوعية هى الطريق الى الاختيار الطبيعى ، لاستبقاء عناصر القوة ونفى عناصر الضعف ، دون تخاذل أمام اعتبارات عاطفية ، جعلتنــا نقدس كل ما هو من المــاضى ، ونخشى مناقشــته ، وكأن وجوده التاريخى دليل لا يجحد على صحته وعلى نفعه للمــاضى ، والحاضر والمستقبل !!

كانت انبعاثة هــذه القضية الحــاضرة من وحى قراءة لكتــاب قديم ، هو « كتاب التيجان فى ملوك

حمير » لمؤلفه وهب بن منبه ، الصنعانى ، وقد عاش وهب فى صدر الاسلام بين عامى أربعة وثلاثين هجرية . وأربعة عشر بعد المائة ، واذا فقد عاصر الصحابة وعاصر التابعين ، وسمع من كثير منهم ، وكما تقول عنه المصادر القديمة ، كان كثير الأخبار ، ينقلها عن الكتب القديمة ، عالما بأساطير الأولين ولا سيما الاسرائيليات ، وكان يقول : سمعت اثنين وتسعين كتابا ، كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها فى الكنائس ، وعشرون فى أيدى الناس لا يعلمها الا قليل . وسواء صح هذا القول فى نسبته الى وهب بن منبه أو لم يصح ، وسواء صح مضمون الخبر عن وجود اثنين وتسعين كتابا ، أكثرها مجهول ، لكنه تمكن من الاطلاع عليه ، أو لم يصح ، فان هذا كله لا يغض من قيمة كتاب « التيجان فى ملوك حمير » من حيث هو تاريخ أسطورى رائع يشيد بدور اليمن ، وجنوب الجزيرة العربية ، ومنزلتها الحضارية ، وبطولاتها ، قبل الاسلام ، بل منذ بدء الخلق ، الى قبيل بعثة محمد ، صلى الله عليه وسلم . لقد وضع

كتاب التيجان بدوافع انتمائية قبلية ، تريد أن ترفع من شـأن قحطـان ، فى مقابل اعتزاز عرب الشـمال بعد الاسلام ، وهذا النعمان بن بشير ، شاعر الأنصـار ، وهم أصلا من جنوب الجزيرة ، يفاخر بالمجد القديم ، فيقول :

ونحن بنينا سد يأجوج فاستوى
بأيماننا ، هل يهدم السد هادم

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر
كرام ، فذو القرنين منا ، وحاتم

وذو القرنين فى البيت الثـانى ليس الاسكندر المقدونى ، على ما يشيع عن ذلك ، ولكنه ملك يمنى حدثنـا عنه وهب بن منبه فى التيجان أيضـا ، وهو الصعب ذو القرنين بن الحـارث ، الرائش ذى مراثد . ابن عمرو الهمال ، ويرتقى بنسبه الى وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام ، ويمضى مع سلسلة الأجداد حتى يصل الى آدم أبى البشر .

هذا اذا تاريخ أسطورى لم يشهده أحد ، ولم يتحدث عنه كتاب سماوى ، أو تاريخ موثق ، أراد به ابن منبه أن يبرز عظمة الماضى ، اليمنى ، ومقدرة رجاله العمالقة الأفذاذ ، وهو فى سبيل هذه الغاية يلغى الزمن والمسافات وقدرة الانسان المحدودة بعمره ، وما تيسر له من استطاعة العمل والانتقال • لكنه يقدم هذا كله بأسلوب حميم فى حماسته واعتزازه ، وبثقة من شهد ذلك الزمان السحيق ، ورأى تفاصيله ، واطمأن الى حدوثه • نكتفى بمثال واحد نقتبسه من كتاب التيجان لنرقب حرية الخيال وانطلاق التصور ، بالصفات التى ذكرنا • قال وهب : « وكان قد تملك بيت المقدس وملك الشام نمرود بن كنعان بن ماريع بن كنعان بن حام بن نوح • وأنه زحف الى بيت المقدس وقحطان بسمرقند ، فلم يكن لبنى عملاق به طاقة ، فأجابوه ••• فهربت النوبة والفرار الى المغرب ، وكان القوط قبل ذلك باليمن ، فتبعتهم عاد الى الشام ، وهربوا من قحطان الى المغرب ••• ورحلوا عنهم القوط فنزلوا على النيل ، وأخذ قحطان نمرودا أسيرا فقتله وصلبه

ببيت المقدس ، وكان النمرود بن كنعـــان أول قتيل صلب • ثم حج قحطان ورجع الى اليمن ، فعاش مدة طويلة ، ثم مات بمأرب ، وولى آمره ابنه يعرب بن قحطان • وكان ولى الملك من ولد قحطان لصلبه عشرة، الا أنهم من تحت ملك أخيهم يعرب بن قحطان » • ثم يعدد وهب آســماء العشرة ، والممالك التى يحكمونها، وهى تقريبا تشمل العــالم القديم بأسره ما بين مكة ، وبابل ، وحضرموت ، والحبشة ، وعمـــان وغيرها • يتحدث وهب بن منبه عن القوط والافرنج ومن يسميهم السكس حديث العارف ، عن هزائمهم ، وانسحابهم ، ويصل الى الهملايا والصين وروســيا ••• وتتحرك شخصياته دائما من اليمن لتسجل أمجادها فى أطراف الأرض ، وتعود بعد ذلك الى الوطن الأم ، مصـــدر الأمجاد ، وصانع الأبطــال ، بطريقة بديعة شاعرية ، لا نكاد نجدها فى غير الملاحم العظيمـــة ، كالأليـــادة والأودســـا •

ان كتاب التيجان لوهب بن منبه يمكن أن يصحح فكرتنا عن حجم المعرفة بالعالم عند العرب فى القرن

الهجرى الأول ، ولكن الأهم من ذلك أنه يصحح لدينا رأيا شائعا ليس سليما ولا دقيقا عن ارتباط العقلية العربية بالماديات ، والتصاقها بالواقع ، وعجزها عن بناء عمل خيالى مترامى المساحة واسع النظرة الى عالم المشاهدة وعالم الغيب أيضا . فهذا كتاب قديم ينحدر الينا من القرن الأول ، ليصحح لنا فكرة سائدة عن منزلة الخيال عند العرب . ويضيف الى التاريخ الأسطورى الذى بدأه هوميروس بالالياذة ، هذا الأثر العظيم ، الذى يحق لنا به أن نأخذ مكانا حرمناه جهلا ، أو تجاهلا ، فى عالم الأساطير ، وعالم الشعر على سواء .

حى بن يقظـــان

٨

فى وقفتنا هذه ، مع الكتاب القديم ، شىء جديد ، اذ يتوزع موضوعه على ثلاثة كتب ، طرحت الموضوع ذاته ، وان يكن من زوايا مختلفة ، ومن ثم يمكن أن تتعدد اجتهـادات التفسـير ، وهذا بدوره يتصـل بالقضية الحاضرة اتصالا مباشرا • الموضوع الثلاثى الرؤية هو « حى بن يقظان » ، والثلاثة الذين تناولوا قصته ، كل كما يتراءى له ، هم ابن سينا ، الشيخ الفيلسوف ، وابن طفيل ، أديب الأندلس ومفكرها ، والسهروردى الصوفى الحلبى المعروف • وقد اتجهوا الى قصة حى بن يقظان ، يطرحون من خلالها رؤاهم الفلسفية ، وأفـكارهم الدينيـة ، والاجتماعية ، بل ينفسون عن مكنون ما يعتمل فى نفوسهم من مشـاعر شخصـية ، وآلام تعرضوا لها فى حيـاتهم • وقصـة حى بن يقظـان مخترعة من أساسـها ، هى من توليد

الفكر ، وتخيلات العلماء ، وليس بدعا ان ننسب الخيال الى العلم ، فالكشف العلمي يبدأ كافتراض ، أو حدس ، أو تخيل ، ثم تقوم التجربة العملية ، أو المعملية باثبات صحته ، فيصير مسلمة علمية ، وحقيقة موضوعية ، أو لا تثبت صحته فيظل افتراضا تحوم حوله خواطر الشعراء والأدباء ، تتنفس من خلاله أحلامهم وتأملاتهم ، فيثرى الفكر والوجدان ، وينمى الحلم الانسانى ببلوغ الكمال ، أو المثال دون أن يستند الأصل على حقيقة لها وجودها الموضوعى . ونحن نعرف أن قصة حى بن يقظان ، تبدأ من وجوده منفردا فى جزيرة مهجورة ، تقع فى محيط ، بعيدة عن العمران . يجد الطفل حى نفسه وحيدا بين الحيوانات ، وتعطف عليه ظبية من ظباء الجزيرة ، فترضعه ، ومن ثم يرتبط بها ، ويمنحها التعلق الذى يستشعره الطفل تجاه أمه ، ويبدأ بتقليدها ، فيسير على أربع مثلها ، ويأكل من نبات الأرض ، ويسير خلفها ، ويقلدها فى كل ما تصنع ، ويحتمى بها ، ويختبىء كما تختبىء اذا ما دهمه مكروه مما تنطوى عليه الحياة فى جزيرة غير ماهولة

بالبشر • غير أنه باستمرار المعايشة ، ونمو الغرائز الانسانية ، ومنها ملكة التفكير عند هذا الصبى ، حى بن يقظان ، بدأ يفطن الى بعض الفروق العضوية والحركية التى تفصل بينه وبين ما حوله من أنواع الحيوان ، فجسده عار ، فى حين أن لكل نوع من الحيوان غطاء ما شعرا أو ريشا أو حراشيف • كما أنه يستطيع أن ينهض على خلفيتيه ، وتنتصب قامته ، وليست الحيوانات كذلك • من خلال هذه المقارنات ، والتفطن للفروق ، بدأ الفكر يعمل ، فهذا الجسم العارى يحتاج الى غطاء ، وهذه القامة المعتدلة لابد أن لها عملا غير العدو فى الجزيرة لتحصيل الأكل ، وتجنب الخطر • وحين تموت الظبية التى أخذت مكان الأم فى نفس الفتى ، يقف حى عاجزا أمام الجثة ، لا يستطيع أن يدرك معنى الموت ، فهذا جسد الظبية لم ينقص شيئا ، فلماذا تظل ساكنة لا تقدر على الحركة ؟ بل لماذا بدأ جسمها يتحلل ويفقد تماسكه ؟ لابد أن للحياة مبدأ خفيا ، فى داخل هذا الجسم ، وهكذا عاد الفكر يعمل ، ليرتقى فى مدارج القياس ،

والاستنتاج ، حتى يصل الى مبدأ الدين ، وضرورته ، والخالق سبحانه ، وأنه الأول والموجد لكل الكائنات .
ولكن : من أين جاء حي ؟ كيف وصل هذه الجزيرة المنعزلة التى لم تطأها قدم بشر قبله ؟ هنــاك تفسيران . أحدهما فلسفي طبيعي يقول ان هــذه الجزيرة بمثابة مركز للأرض ، وتمثل الاستواء والاعتدال بين العناصر المكونة لكافة المخلوقــات ، فهى وســط بين الرطوبة واليبوسة ، ووسط بين الحرارة والبرودة .. والزعم الفلسفي أنه اذا اعتدلت النسب دبت الحياة فى الطين ، وهذا يعني أن حيا بن يقظان استنبات طبيعي تهيأت له ظروف خاصة . والتفسير الآخر يستهدى قصة موسى عليه السلام ، اذ ألقته أمه فى اليم ، حين خافت عليــه بطش فرعون ، وكان أن سبح الصندوق مع تيار النهر حتى رســا على شاطئ بعيد ، كان سببا فى النجــاة ، فيرى هــذا التفسير الثانى أن أخت الملك أحبت ابن عمها ، وتزوجته خفية ، لمــا عارض أخوها كل زوج يتقدم لها ، كبرياء منه واستعلاء ، فلما حملت ، وجاء الطفل خافت بطش أخيها ، فوضعت طفلها فى زورق

تركت مصيره لحركة الأمواج ، فكان ما كان من وصوله الى الجزيرة ، وتبنى الظبية له •

لقد أقبل فلاسفتنا الثلاثة على تنمية هـذه القصة المخترعة ، لأسـباب فلسفية تتصـل بما ينهجون من سـبل الفكر ، كما تدخلت دوافع الحياة الشخصـية وظروفها فى بعض الأحيان • فالشيخ الرئيس ، ابن سينا، نزعته عقلية تجريبية ، يرى أن باستطاعة العقل وحده أن يصـل الى المعرفة بالله سبحانه ، دون هـداية من نبى ، لأن مبدأ الألوهية مركوز فى الفطرة الانسانية ، وفى قوانين العقل البشرى • ولهذا اسـتطاع حى أن يعرف الله ويعبده ، حتى قبل أن يتعلم اللغة ، وكان حواره مع أبسال وسلامان ، وهما الشخصان الوحيدان اللذان التقى بهما من البشر ، تنمية لمـا عرفه باستنتاج العقل دون معونة من معرفة نقلية • لم يختلف تصـوير ابن طفيل كثيرا عن ذلك ، وان كان تعبيره أقرب الى لغة الفن القصصى ، من عناية بالتصـوير ، ورسم الخلجات، وتوزيع عناصر التشويق • وينفرد السهروردى بمنهجه فى التصـوف ، كما أنه خلع هـذا المنهج على شخصية

حي • فالسهروردي فيلسوف اشراقي ، يرى أن الانسان يحصل على المعرفة لا عن طريق العقل ، وأعمال قوانين الفكر ، وانما المعرفة فيض رباني ، يشرق على النفس في ومضة غير زمانية ، بالرياضة الروحية وحدها ؛ فالانسان الذي يأخذ جسده بالحزم ، فيضعفه بالصوم ، والصلاة ، والسهر للتفكير والتأمل والعبادة ، ضعف الجسد هذا يمنح الروح قوة ، يطلقها من عقالها ، يكسبها شفافية لم تكن لتتوفر لها وهي غارقة في روابطها الأرضية وحاجاتها المادية • وحي بن يقظان عند السهروردي نموذج لطالب المعرفة الاشراقية ، وقد حصل عليها بالرياضة الروحية والعزلة ، وليس بالتفكير ، والقياس والاستنباط ، كما أراد ابن سينا ، وكما أراد ابن طفيل •

وبعد ••• فما هي القضية الحاضرة التي تثيرها هذه الكتابات القديمة حول قصة حي بن يقظان ؟ لنستحضر في نفوسنا ما يقال دائما عن أزمة النصوص المسرحية ، لنتذكر الشكوى المستمرة عن التكرار واللف في دائرة مفرغة من الموضوعات التي تطرقها

أفلامنا العربية ، وتمثيلياتنا . لماذا لم نفكر — الى الآن — فى توصيل تراثنا القصصى الى المشاهد والمستمع العربى من خلال أدوات التوصيل الحديثة ؟ . لقد بذلت محاولات محدودة ، عدد قليل من المسرحيات أو التمثيليات ، استمده كتاب معاصرون من المقامات ، أو من السير الشعبية . والقدر الأكبر ، وربما الأكثر جدية لايزال مستبعدا أو منسيا ، فأين رسالة الغفران ، والتوابع والزوابع ، وحكايات البخلاء ، والمحاسن والأضداد ، والفرج بعد الشدة ، وأخيرا ، بل أولا : حى بن يقظان ؟ أليس من العجيب الذى أصبحنا لكثرة حدوثه لا نعجب منه ، أن يتجه أدباؤنا وفنانونا الى أعمال أجنبية ، كتبت لغيرنا ، لتعبر عن أجواء ومشكلات وفكر ، ليس دائما مناسبا لنا ، فيبذلون الجهد الذى يبلغ حد التصنع والتمحل لتتناسب والمشاهد أو القارىء عندنا ، ويهملون عيون تراثنا الفنى ، الذى يشهد له العالم بالامتياز والأصالة ؟ أليس مستغربا أن يتجه غيرنا الى الالياذة ، والى الدراما الاغريقية ، والى أليس فى أرض العجائب ، والى

روبنسون كروزو ، يدعمون بهـا وجودهم الروحى ، وميراثهم الفكرى ، وننصرف نحن عما يميز وجودنا الروحى ، وأصالتنا الفكرية ؟ هـذه قضية حاضرة ، وستبقى كذلك الى أن نحصـل على المؤلف الدرامى المثقف ، والفنان المثقف ، ويتحقق الايمـان بأن سر عظمـة الأمم ، وسر نهوض الحضـارات ، يكمن فى استقلاليتها كخطوة أولى أساسـية ، ونعنى استقلال الفكر ، والشخصية ، قبل استقلال الأرض ذاتها ، لأن استقلال الفكر ، والشخصية هما الحارس والضمان، ليس لاسـتقلال الأرض وحسـب ، وانما لتقدمهـا وازدهارها أيضا .

الموسيقى الكبير

٩

قبل أن نتوقف عند الكتاب القديم ، وما يثير من قضية أو قضايا حاضرة ، أود أن أمهد لذلك بايضاح أمرين : عن مفهوم الحضارة ، وعن أساس التجديد. فبالنسبة لبناء حضارة نامية راقية ، لا يتم هذا الا باعمال كل قوى الانسان المبتكرة ، فى جميع الاتجاهات ، فى العلوم ، كما فى الآداب ، فى الفنون ، كما فى الرياضة ، فى الجد ، كما فى التخفف من وطأة الجد ، فى الماديات ، كما فى المعنويات . هذا هو مفهوم التقدم الحضارى ، وهو سر صمود حضارات لمئات السنين ، وسقوط أخرى وتحللها وهى لاتزال فى مرحلة الاعلان عن وجودها .. المواهب الانسانية الخلاقة ، تتجلى روعة ابداعها فى تناغم وتنسيق حركتها الجماعية ، ، فيعلو البناء من كافة أركانه ، ويتكامل اللحن الجميل ، بما يصدر عن جميع الأوتار . هذا

بالنسبة لمفهوم النهضة الحضارية . ومن المعروف أننا نجتاز مرحلة خطيرة من نهضة عربية حديثة ، تريد أن تأخذ بزمــام المستقبل . ولكن من أين نبدأ ؟ هــذا السؤال مطروح للحوار منذ قرن ونصف القرن . ولسنا نريد هنا أن نشعب فى الجواب . وقد كان من أكثرها صوابا وسدادا قول بعضهم : ان التجديد هو أن تقتل القديم بحثا . فهذا العالم الفاضل يرى أن التجديد ليس رفضا أو تنكرا أو استهانة بالقديم ، ليس جريــا وراء أحدث صيحات العصر ، نصير بملاحقتها مقلدين ، تابعين ممسوخين ، كما أن التجديد ليس وقوفا جامــدا مع المــاضي ، وتعصبا مغلقا على كل ما ينطوى عليه هذا المــاضي . بداية التجديد أن نبحث فى القديم ، وأن نمعن فى بحثه دون كلل ، وهنا سيبوح القديم بأسراره ، ويفتح الطريق الى جديد نابع من تحليل هــذا القديم ، يعرف السبب والنتيجــة ، ويدرك كيف تعمل قوانين التطور وفى أى اتجاه . والآن .. أستطيع أن أفضى باسم الكتاب القديم ، وهو كتاب « الموسيقى الكبير » للفيلسوف الاسلامى العظيم ، أبى نصر محمد بن محمد

ابن طرخـان ، المعروف بالفارابى ، نسبه الى مدينـة « فـارب » التى ولد بهـا أبو نصر ، وهى من مدن خراسان ، وكان أبوه قائدا تركيا يعيش فى تلك المدينة ، التى نسب اليها ، فقيل : الفارابى .

ومرة أخرى ، سأجدنى بحاجة الى الاعتراف بأن موضوع الموسيقى ليس من الموضـوعات العامة التى يحق لكل مستمع أو متذوق أن يتحدث فى شئونها ، الموسـيقى عـلم له أصـوله وأدواته ، ومناهجـه ، واصطلاحاته . واعترافا بهذا كله فان وقفتى مع كتاب « الموسيقى الكبير » لن تدخل الى مادة الكتـاب فى صميمها ؛ وانما تشير الى اطاره العام من زاوية البحث عن الجديد ، فى القديم ، كما سبق القول . واعترف مرة أخرى أن باعثا آنيـا كان وراء الالتفات الى كتـاب « الموسيقى الكبير » ؛ فقد صـدر مؤخرا ، عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، بالكويت ، كتـاب جمع ، وبوب ، وضبط ، أغانى الأطفال فى الكويت ، من أول أمرها : أغانى المهد أو الترقيص ، الى أن يشب الطفل ويلعب مع جنسه من البنات أو الصبيان ، الألعاب

الجماعية التى تناسب نوعه وعمره . وقد لفتنى فى هذا الكتاب : « أغانى الأطفال فى الكويت » ، أن كل أغنية قد وضع ازاءها « نوتة » موسيقية ترسم معالم اللحن الذي تغنى عليه هذه الأغنية . لقد كان هـذا تصرفا حكيما من الهيئة التى أشرفت على الكتاب ورسمت منهجه ، فهذه الألحان التى تغنى عليها أغانى الأطفال، معروفة أمس ، واليوم ، ولكنها أقل وضوحا غدا ، وربما مجهولة تماما بعد غد ، بعوامل الزمن ، وتبدل المواقع ، واختلاف وسائل اللهو ، وأنماط اللعب . « النوتة » الموسيقية برموزها العالمية هى الحل الوحيد للحفاظ على التراث الشعبى ، والتراث الموسيقى بشكل عام ، ولقد ضاع جل التراث الموسيقى العربى ، ان لم يكن ضاع كله ، لأن مؤلف الموسيقى ومدونها استخدم الوصف مكان الرمز ، فراح يتحدث عن الثقيل والخفيف ، وعن البنصر والسبابة ، على نحو ما نقرأ من أوصاف أبى الفرج الأصفهانى ، فى « الأغانى » ، حين يريد أن يحدد مسار اللحن لبعض مقاطع الشعر ، ولم يعرف أبو الفرج ، ونيته حسنة ، أن ما هو معروف له

ولأهل زمانه لن يكون معروفا لأهل الزمان القادم ، ما لم تحفظه لغة منضبطة ثابتة فيما تدل عليه . فما أشبه صنيعه بما فعل واضعو المعاجم العربيـــة حين يريدون شرح اسم غريب ، فيصفونه بأنه نبات معروف ، أو دابة معروفة ، يعتقدون أنهم بهذا الصنيع قد أزالوا الغموض وأدوا واجبهم ، ولم يتساءلوا : هـــذا النبات أو هذا الحيوان معروف لمن ؟ ومعروف فى أى عصر ؟ وكيف سيتعرف عليـــه من لم يره لبعد المكان ، أو احتمـــال الانقراض ؟ ! ولهذا لم يرسموا له صورة ، ولم يقدموا له وصفا شافيا ، ومن المؤلم أن الموسيقى العربية واجهت نفس المصير للأسباب ذاتها ، وان كانت هنالك محاولات لازالة جانب من الغموض ، فانها لاتزال محـــاولات اجتهادية ، تتمنى أن تأخذ الشكل العلمى الجمـــاعى المنظم ، وأن تؤدى ثمرتها المرجوة ، لتجديد الموسيقى على أسس عربية ، تراثية صحيحة .

هذه اذا هى القضية الحـــاضرة التى نثيرها بوحى من كتـــاب الموسيقى الكبير ، للفيلسوف الاســـلامى أبى نصر الفارابى ، فالنهضة العربية ينبغى أن تشمل

جميع الجوانب ، والتجديد ينطلق من الوعى العميق بالقديم . وفى أكثر من بلد عربى فرقـة للموسـيقى العربية تردد ألحان القرن المـاضى على أنها العربية ، وهى واضحة التأثر بالموسيقى التركية ، وهنا يظهر لنا أن الموسيقى العربيـة أعز منالا للسبب الذى قدمنا ، وتحتاج الى اكتشاف من خلال ما وصفه الأصفهانى فى الأغانى ، وما رسم الفارابى من آلات ، وألحـان فى كتابه الذى بدأنا به هذا الحديث .

أما الكتاب ذاته ، الموسيقى الكبير ، فعلى الرغم من أن ما نشر منه محققا ليس كل ما ينطوى عليه من معلومات قيمة ، فانه فى عمق خبرته بالعلوم يحقق شرط النظرة الفلسفية الكلية عن وحـدة المعرفة ، فقد كان الفارابى عالمـا ، طبيبا ، فيلسوفا ، رياضيا ، موسيقيا ، وقد أعانته هـذه المعارف أن تكون انجازاته فى كل ما كتب فريدة مبتكرة فهو صاحب المدينـة الفاضلة ، وهو ــ فيما رأى البعض ــ أول من اخترع العود ، بل قالوا انه اخترع آلة يستطيع الضرب عليها بطرق معينة أن ينقل الانسـان الى حـالات لا يملك عنهـا

حولا ، فاصدار نغم معين يحمله على الضحك ، ولحن آخر يجعله يبكى ، وثالث يحمـــله الى عالم الأحــلام فينـــام !

كتاب « الموســيقى الكبير » موســوعة تضمنت الأصــول الجمالية للموسيقى ، والعلاقة بين الموسيقى والشــعر ، وتدرج الأصــوات فى العزف مع مقادير الأصوات فى الحلق ، ومناسبة ذلك مع الغناء . وتكلمت عن التأليف الموسيقى ، ووصلت ، أو وصل الفارابى فيها الى اجتهادات تشكر له ، فرأى مثلا أن المؤلف الموسيقى ليس مطلوبا منه أن يجيد العزف ، فالتأليف الموسيقى يقوم على الوعى النظرى بعلاقات الأصوات ، وما تحقق من حالات تتحرك بين اثارة اللذة ، أو تحريك الخيــال ، أو اثارة الانفعال ، وهى الغايات الثلاثــة للألحان بعامة ، والمعرفة بأسرارها ، وكيفيــة بلوغ مكامنها بالموسيقى لا يتحتم عليــه بالضرورة أن يكون المؤلف قادرا أو ماهرا فى العزف ، فهذا الجانب العملى أو التنفيذى ، والمهارة فيه ، لا علاقة حتمية بينه وبين التأليف .

لقد وصف الفـارابى جميـع الآلات الموسيقية المعروفـة فى زمانه ، القرن الرابـع الهجرى ، ووصف الأنغام المفردة ، أو الجزئية ، والألحان المركبة ، وحدد الأهـداف التى يسعى الموسيقى الى بعثهـا فى نفوس سامعيه • وهذا كله يكسب الموسيقى العربيـة صبغة العلم الجـاد ، بل العلم الصعب ، الهادف الى الفائدة النفسـية ، والمتعـة • وهـذا ما ينبغى أن يؤصـل نظرتنا الى الموسيقى العربية ، والموسيقى الجـادة بوجه عام ، وفيه دعوة الى التجديد ، على أساس من المعرفة بالقديم ، ليكتمل لنا شرط التقدم فى هـذا المجال •

مفتاح الراحة لأهل الفلاحة

١٠

كتاب « مفتاح الراحة لأهل الفلاحة » هو الذى نتوقف عنده ، محاولين التعريف به ، واستكشاف قضية حاضرة ، تمسح عن تراثنا غبار الزمن الطويل ، أو بعض غباره ، وتنبه الخواطر الى جانب من ايجابيات هذه الكتب ، أو الزوايا الجديدة التى يمكن أن نطل منها ... عليها . « مفتاح الراحة لأهل الفلاحة » واضح المحتوى من عنوانه ، وهو كتاب موسوعى حقا فى بابه ، موسوعى بأكثر من معنى ، كما سنرى ، وقد توافر على تحقيقه عالمان فاضلان ، أشارا فى مقدمته الى غموض شخصية مؤلفة المجهول ، واكتفيا باستنتاج أن المؤلف المجهول قد اعتمد على النقل من كتب سابقيه فى علم الفلاحة ، وأن هذا النقل يتدرج الى أن يصل الى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى ، وبهذا رجح عندهما أن المؤلف عاش ابان القرن الثامن ، كما رجح

عندهما أنه من أهل الشام ، لملاحظات يريانها كافية لهذا الترجيح ، فأوصافه لبعض النباتات فى دمشق وما حولها ، واشارته الى بعض الأسماء الشائعة لأنواع من الفواكه لم تعرف بها الا فى الشام ، ووصفه لبعض الأماكن هناك ، مؤشرات تدل على ذلك . ومهما يكن من أمر فان محتوى الكتاب ، ومنهجه ، يدلان على أمور هامة ، لم يصرفنا عنها أن المؤلف مجهول ، كما لم يصرف ذلك هذان المحققان الفاضلان ، ومعهما المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الذى أصدر هذا الكتاب ضمن سلسلته التراثية ، فأدى للعلم والثقافة وللتاريخ أيضا ، بل أدى للغة العربية خدمة نافعة مؤثرة، تستحق التقدير .

فى كتاب « مفتاح الراحة لأهل الفلاحة » ، كما فى كثير من الدراسات المبكرة ، يختلط عالم الغيب بعالم المشاهدة ، وقد تأتى الحقيقة فى ثوب الخرافة ، وقد يحدث العكس ، وهذا أمر متوقع فى علوم لم تتحدد مناهج البحث فيها ، ولم يتفق العلماء على المسائل التى تندرج تحتها ، والوسائل التى ينبغى

اعتمادها فى اختيار هـذه المسائل ، وتصنيفها ، ووصف نتائج البحث فيها . وهكذا ينقل المؤلف المجهول عن المسعودى ـ فى مروج الذهب ـ أن آدم عليه السلام لمـا أهبط من الأرض خرج من الجنـة ومعه ثلاثون قضيبا مودعة أصناف الثمرة ، منها عشرة لها قشر ، ومنها عشرة لثمرها نوى ، ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى . ثم أخذ يعدد هـذه العشرات المنحـدرة الينا من الجنة ، وهى غالبا من أنواع الفاكهة ، ومع وضوح الخلل فى القسمة العقلية التى صنفت اليها هذه المجاميع الثلاثة ، فان من حقنـا أن نتساءل : من أين جاءت الأنواع الأخرى من النبات ، التى تبدو لنا أكثر أهمية لمعيشة الانسان من الفستق والصـنوبر والنبق والخروب .. الى آخره ؟ على أية حال ، اننا لم نؤثر هذا الكتـاب بحديثنا لنشـير الى سلبياته ، وانما لنضىء مساحة من معرفتنا بالتراث ، وما يمكن أن يجدد من فكرتنا عن الراهن الذى نعيش . ولقد أدى المؤلف المجهول خدمة عظيمة حقا بكتابه هذا ، من حيث غطى أكثر ما نعرف من أنواع النبات ، يذكر اسمه ، وموعد

زراعته ، وأسلوب غرسه ، ونظـام ريه ، ومتى يحصد، ولمـاذا يجود ؟ وأخطر الآفات التى يتعرض لها . وقد أشرنا منذ قليل أننا نعتبر هـذا الكتاب موسوعيا بأكثر من معنى ، وهذه الموسوعية ستكون مدخلنا الى المعرفة بالقضية الحاضرة ، بل بأكثر من قضية حاضرة ، يثيرها هذا الكتاب .

الايجابية الأولى النابعة من هذه النظرة الموسوعية، تتجلى فى الاهتمام بالفلاحة فى ذاتها ، ونحن نعرف أن اللغة العربيـة فى صميمها لغة الصحراء ، بنت الجزيرة العربية التى لم تكن تعرف الزراعة فى أكثر مناطقها ، كما نعرف أن الأدب العربى فى جوهره أدب بدوى ، بدأ بشعراء الحجـاز ونجد وما حولهما ، وحين أراد محمد بن سلام الجمحى أن يضع الشعراء فى طبقات فانه التفت الى شعراء البادية فوضعهم فى أماكنهم من طبقاته ، والتفت عن غيرهم فلم يمنحه هـذه الميزة . وقد خلعت الصحراء والبداوة كثيرا من الفضـائل على هذا الأدب وعلى اللغة التى كتب بها ، كما تركت آثارا سلبية فى بعض المجـالات ، منها احتقار العمل اليدوى

والاستهانة بمن يمتهنـــه ، وبخاصـــة مهنة الزراعـــة ، أو الفلاحة . هنا تظهر أهمية أن نضع هـــذه المؤلفات عن فن الفلاحة تحت الضوء ، ليس لتنوير تاريخنا العلمى وحسب . ولا نشك فى أن الفلاحة والعمل فى الزراعة علم له أصـــوله ، ولكن بالاضافـــة الى ذلك ، لكى نستدرك على بعض الأفكار المتوارثـــة عن الأنشطـــة العملية فى ماضينا ، وعن العلاقة بالأرض ، وهى مسألة مهمـــة ، فى تأكيد معنى المواطنـــة وتعميق الرابطـــة بالعمران ، ودعم المفهوم الحضارى للدور الذى قامت عليـــه حركة الفتح الاســـلامى ، واســـتقرار الدولة الاســـلامية .

هذه مسألة أولى ليست بالقليلة ، غير أن هـــذا الكتاب « مفتاح الراحة لأهل الفلاحة » قامت مادته على اختصارات واختيارات من كتب سابقة عليه فى نفس الفن ، وهـــذا النهج من مؤلفه المجهول يفتح أمامنا الطريق الى استكشاف قانون لتطورنا العلمى فى هـــذه الحقب المتراميـــة من ماضينا ، فمـــا حجم النقل عن المـــاضى ؟ وماذا أضيف الى كتب السابقين ؟ وفى أى

اتجـاه أضيف ؟ وعـلام تدل الزيـادة أو النقص فى المعلومات ؟ وما هى الظروف الموضوعية التى أحاطت بعملية الاختيار والاختصار ؟ ان هذا العمل ، لو بدأناه فى كافة علومنا العربية التراثية ، سيضع أمامنا خريطـة واضحة القسمات ، لتاريخنا العلمي الذى لا نعرف عنه غير آراء متناثرة ، وأحكام مبتورة وأخطاء تأخذ عند بعضنا شكل المسلمات .

يستطيع دارس اللهجات الحديثة ، والمعنى بهجرة الكلمات بين الأقاليم أن يجد مادة جديدة فى هـذا الكتاب ، لأنه حين يذكر اسم نبات فى اقليم فانه يذكر ما تطلق الأقاليم الأخرى على نفس النوع ، وربما علل اختلاف التسمية بشيء من التاريخ المجهول ، الذى لم يتعود المؤرخون على ذكره أو الاهتمـام به . مثـل ما يذكر عن افلاح البطيخ ، فيذكر أنه نوعان : برى ، وبستانى . والبرى يسمى الحنظل ، والبستانى ينقسم الى : هندى وصينى وخراسانى .

ويذكر أن الهندى يسمى بمصر البطيخ الأخضر ، أما الصينى فيسمى الأصفر ، وهـذا يعنى أن ما نطلق عليه الآن « الشمام » كان يسمى فى زمنه « البطيخ » ، وهو يحمـل نفس التسمية حاليا فى بعض البـلاد . أما البطيخ الخراسانى ـ هكذا يقول المؤلف المجهول ـ فانه يسمى بمصر العبدلاوى ، منسوبا لعبد الله بن طاهر ، فانه الذى دخل به الى مصر ، وهو بطيخ أصفر أيضا وهنـاك بطيخ مرقش من ثلاثة ألوان : الأحمر والأصفر والأسود ، ويطلق عليه : الزبش ، بسـبب لونه ، واللفاح ، وفى العراق يسمى دستنبوى ، ومعناها بالفارسية رائحـة اليد ، ويعرف فى الشام بالشمام . والمؤلف المجهول ، الى جانب هـذا التسجيل الدقيق لأسماء الثمار فى مختلف المناطق ، يضـع فى سـياق كتابه الكثير من أبيات الشعر ومقطوعاته ، التى قيلت فى وصف هـذه النباتات ، أو قيلت فى وصف النساء مشبهات بالثمار الناضجة ، أو فيما يناسب من حالات النفس أو حالات الحياة . والمؤلف بهذا الصنيع يقدم

كتابا مهما لدارس الأدب ، والباحث فى الصور البيانية ، ومع هذا فانه يقدم لنا مثالا طريفا للتأليف العلمى ، حين يمتزج بالأدب والفن ، فيقدم للقارىء العادى والمتخصص معا ، مادة علمية صحيحة فى سياق ممتع ، يحقق الفائدة ، واللذة ، ويفتح فى الذهن آفاقا جديدة ، تحرك الفكر ، كما تؤثر فى الشعور ، وتكشف عن وحدة المعرفة فى نهاية المطاف .

التربيـــع والتدويـــر

١١

صاحب الكتاب القديم ، الذى نعنى به ـ فى هذه الوقفة ـ من أشـــهر كتاب القرن الثالث الهجرى ، ان لم يكن أشهرهم على الاطـــلاق . فقد نـــال أدب الجاحظ من الذيوع ما تجاوز به المثقفين الى عامة الناس ، ممن يتابعون وسائل النشر الحديثة المقروءة ، والمسموعة والمرئيـــة . وكان كتابه « البخلاء » هو الطريق الممهد لهذا الانتشار ، كما كان كتابه « الحيوان » سبيلا آخر لأن يذكر الجاحظ بين علمـــاء ليس الأدب بضاعتهم . وقد كتبت دراسات تقارن بين « حيوان » أرســـطو ، « وحيوان » الجاحظ ، ولم يكن الجاحظ فى نزعتـــه العقليـــة الاحتجاجيـــة ، وقوله بالوسطية فى الصفات وألوان السلوك ، بعيدا عن التأثر المباشر بأرسطو ، كما كتبت دراســـات تربط ما بين بخـــلاء الجاحظ ، ومسرحية « البخيل » لموليير ، وهذا الربط من قبيل

الموازنة ، ولا تعين عليه مناهج الأدب المقارن ، التى تشترط أول ما تشترط وجود صلة وتأثير مؤكد من السابق فى اللاحق ، وهـذا ما لم يقم عليه دليل ، بين الجاحظ ، السابق ، وموليير ، اللاحق . وقد عكس كل من الأثرين الخصـائص الثقافيـة والروحيـة المميزة للموروث عند كل من الأمة العربية ، فى بخلاء الجاحظ ، والأمة الفرنسية فى بخيل موليير .

الكتاب الذى نتوقف عنده لم ينل شهرة البخلاء ، وللكتب حظوظ وأقـدار كالبشر ، اذ لم ينل كتـاب « التربيع والتدوير » أو « رسالة التربيع والتدوير » ما ناله البخـلاء من انتشار ، ومع هـذا فان « رسالة التربيع والتدوير » نهج غير مسبوق فى أسلوب التأليف ، قبل عصرها وبعده ، واننا اذ نتمهل قليلا عندها ، نشعر بأن هذه الكلمات لن توفيها حقها ، وأنها اذا استطاعت أن تثير نحوها الالتفات ، وأن تشـير الى منزلتها فى الأسلوب الفنى المبتكر غير المسبوق ، فحسبها ذلك .

« والتربيع والتدوير » ، كما يقول صدر الرسالة ، كتبت للسخرية من أحمد بن عبد الوهاب ، أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات ، الوزير المشهور . غير أننا نرى أن هذه الشخصية لم تكن أكثر من نقطة انطلاق للسخرية من الأدعياء ، كل الأدعياء ، فى جميع العصور . يكفى أن نتأمل العنوان : « التربيع والتدوير » ، فالمربع والدائرة لا يلتقيان من الناحية الشكلية ، ومع هذا فانهما يتنازعان ادعاء الكمال ، فالمربع شكل كامل ، وكذلك الدائرة . واذا ثبت الكمال لأحدهما فان الآخر يستحيل أن يكون كذلك ، الا أن يكون كمال النقص !! وهذا هو ملتقى الأدعياء ، حيث يرون أنفسهم أكمل الناس ، ويراهم الآخرون عكس ذلك .

ان افتتاح الرسالة بالوصف الحسى العام لأحمد بن عبد الوهاب ، ينتهى الى هذا المعنى : التنازع الى درجة التضاد ، أو الادعاء ، الى حد الانتقال الى الاتجاه العكسى ، يقول الجاحظ : « كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط

الطول ، وكان مربعـا ، وتحسـبه لسـعة جفرته ، واستفاضة خاصرته ، مدورا ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو — مع قصر ساقه — يدعى أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عـادى القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسـم ، والسعة فى العلم ، وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد .

ان تكرار الفعل — الوصف — « يدعى » يوجه اهتمام القارىء الى ما تدل عليه الأوصاف الحسـية الساخرة ، من صفات نفسية تقوم على مخادعة النفس ، ومحاولة خداع الآخرين ، واذا كان هـذا يحـدث فيما لا مجـال فيه لخداع ، وهو الصـورة الظاهرة للانسـان ، فهو فيمـا يخفى من الجوانب الأخـرى للشخصية ، مثل المعرفة ، والكرم ، والخبرة بالحيـاة وبالناس ، وما الى ذلك من صفات نفسية ، سـيكون أحمد بن عبد الوهاب فيها أشد ادعاء بعكس ما فيه .

وهـذا ما يسجله الجـاحظ مستخدما حجج المنطق ، ومعرفته الواسعة بالفلسفة والتاريخ والعقائد .

وبعد .. فلسنا نريد ، واذا أردنا لن نستطيع ، أن نوفى « رسالة التربيع والتدوير » حقها أو بعض حقها فى هـذا المـدى الزمنى المحـدود ، ومن ثم نكتفى مضطرين بما قدمنا ، لنتساءل : أين القضية الحاضرة ، التى نضعها تحت ضوء الحداثة ، فى قراءتنا الجديدة لرسالة التربيع والتدوير ؟ .

سنجد فى حدود هذا التوجه ــ أكثر من قضـية ايجابية ــ أولها أن الجاحظ فى هذه الرسالة يضـع الأساس الفلسفى لفن السخرية ، وهو غير مسبوق فى محاولته هـذه ، ربما فى جميـع الآداب المعروفـة . لأرسطو اشارة عابرة عن فن السخرية ، وقد ربطـه بالانقلاب المفاجىء ، وبأن يحمل الكلام عكس ما يعلن ظاهره ، كالذم عن طريق المدح ، أو المدح بما ظاهره الذم . أما الجاحظ فانه يهتم بالأسـاس النظرى لفن السخرية ، وهو ما لم تتعوده فى دراسات القـدماء ،

أو أكثرها ، وهـذا الأساس يعتمد على المنطق ، كما يعتمد على التحليل الاجتماعي والنفسي ، وهذا كله جديد ينبغي أن يضاف الى رأينا في آدبنا القديم ، فالسخرية عند الجاحظ هدفها الاصلاح والتقويم ، ولا ينبغي أن تلحق ضررا بالآخرين ، والسخرية خير من الجد ، في رأى الجاحظ ، لأن ما جعل الشيء قبيحا هو أقبح من الشيء ذاته ، كما أن ما جعل الشيء حسنا هو أحسن من هذا الشيء !!

وفي هذه الرسالة يدافع الجاحظ عن فن السخرية والهزل دفاعا ذكيا رائعا ، فالهزل دليل الغنى ، وحسن الحال ، وفراغ البال ، وأنه مستراح وجمام ومحبة ، وصاحبه في رخاء ولذة بعكس الجد فهو دليل الحاجة ، وأنه تعب ومشقة ، ومبغضة وبلاء وألم . ثم ، بعد هذا التحليل الاجتماعي السيكولوجي ، يستخدم المنطق فيقول : وانما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا ، وكدوا ليستريحوا .

أما القضية الثانية الحاضرة ، فهي ماثلة

فيما تجسده هذه الرسالة من مقدرة على رسم الشخصية الانسانية رسما كاريكاتوريا ، يتجاوز الشخص المعين الى الصنف أو الصفة ، فأحمد بن عبد الوهاب ليس الا ذريعة لتصوير الادعاء ، والسخف فى أعلى درجاتهما ، ولم يؤثر عن عمل فنى عربى حتى عصر الجاحظ أن أخذ هذا الامتداد الكمى ، والاحاطة النوعية بالصفات الحسية ، والمعنوية ، والسلوكية لشخص واحد ، ومن شأن هذا أن يصحح فكرتنا عن ما ترسب فى أفكار بعضنا من أن الأديب العربى القديم لا صبر له على المعالجة العميقة المستفيضة ، وأن الذكاء العربى يتجلى فى التعليق الخاطف ، والعبارة العابرة ، وفى الصور الجزئية ، ولا يأخذ شكل التصميم الفنى ذى الأبعاد والطبقات والدرجات • ثم تأتى القضية الأخيرة ، وهى تشير الى موليير مرة أخرى ، فاذا كان بخلاء الجاحظ ، يستدعى بخلاء موليير ، فان هذه الرسالة تستدعى مسرحية أخرى ، هى المثرى النبيل ، أو البرجوازى النبيل •• انه ادعاء من نفس النوع ، وان يكن خاضعا لمواصفات البناء المسرحى • فهل تكون

علاقة الكاتب الفرنسى ، بالجاحظ مجرد تشابه أم أننا أمام موضوع جديد ، وان يكن بحاجة الى دليل ؟ !

وبصفة عامة ، ان رسالة التربيع والتدوير يمكن أن تمنحنا الآن ، وبالقراءة التحديثية عملا مسرحيا عربيا أصيلا ، كما يمكن ــ على المستوى النظرى ــ أن تضع اطارا فلسفيا وفنيا لأصول السخرية والهزل . وما أحوجنا الى ذلك فى فنوننا المعاصرة .

الفخرى : فى الآداب السلطانية

والدول الاسلامية

١٢

ت ‌بقى القضية الحاضرة دائما ، الشاغلة لاهتمامنا جميعا محكومة بمبدأ التجديد ، من خلال منظور محدد . تجديد ، يقوم على الوعى بالقديم ، وعيا علميا دقيقا يتخلص من الأخطاء الشائعة ، وأسر الأقوال المشهورة ، والرضاء بأن ما قيل عن القديم فيه كفاية ، وينسى التوجه الى المستقبل ، لأن المستقبل فى هذا التنظيم ذاته ، لا بمعنى العودة الى الوراء ، أو تجميد حركة التاريخ ، وانما بمعنى أن القديم هو الأساس و الخاصة المميزة ، وهو التجربة الشعورية واللاشعورية ، ودورنا المنوط بنا هو المعرفة ، والتحليل، والانتقاء ، أى انتقاء العناصر الصالحة فى هذا القديم ، ننميها ، ونطورها ، ونجدد شخصيتنا من خلالها ، تبقى لهذه الشخصية أصالتها وتميزها . لم يكن من هذه المقدمة بد ، كى أضع تحت الضوء جانبا من كتاب

قديم ، ألفه محمد بن على بن طباطبا ، فى القرن السابع الهجرى ، أما الكتـاب فهو « الفخـرى : فى الآداب السلطانيـة ، والدول الاسـلامية » • والمؤلف يجمل محتوى كتابه بقوله : « هـذا كتاب تكلمت فيه على أحوال الدول وأمور الملك ، وذكرت فيه ما استظرفته من أحـوال الملوك الفضـلاء ، واستقريته من سـير الخلفاء والوزراء » • لن تصرفنا اشارته الى الاستظراف عن الشعور بجدية الكتاب ، ورصانته العلمية ، لم يكن الاستطراد بذكر النوادر والأخبار غريبا على عقليـة المؤلف العـربى فى أى فن حتى فى الطب والفلسـفة ، وحتى فى كتب الفقه ، وقد قسـم ابن طباطبا كتابـه « الفخرى » الى قسمين ، تكلم فى أولهما عن الأمور السلطانية ، والسياسات الملكيـة ــ حسب تعبيره ــ وخواص الملك التى يتميز بها عن السوقة ، والتى يجب أن تكون موجودة أو معدومة فيه ، وما يجب له على رعيته ، وما يجب لهم عليه ، أما القسم الثانى فقد تكلم فيه على أشخاص الخلفاء ، وأهم أعوانهم من الوزراء والقادة ، بدءا بالصـديق ، رضى الله عنه ، ثم بالدولة

الأموية على ترتيب خلفائها ، ثم العباسية كذلك ، مع اهتمام بالقوى المتغلبة على أطرافها ، والمنافسه لها ، حتى سقوطها . لقد وضح لنا بعد هذا الاجمال لقسمى الكتاب ، أنه انتقل بين منهجين : معيارى ، ووصفى ، فى الأول تكلم عن مبدأ الملك ، وأسباب رقى الأمم ، وهو هنا ينطلق من رؤية موضوعية ، تتطلب الكمال بصرف النظر عن الوقائع الماثلة ، والواقع الذى جرى، فقد أجل فيه القول ، واحتفظ له بالقسم الثانى ، الوصفى ، الذى يسجل ما حدث ، كما حدث . مع شىء من التعليق . ونستطيع أن نقول ان هذا الجزء الأخير تاريخ صريح ، له أشباه ونظائر فى كتب أخرى نقل ابن طباطبا عنها ، وأشار اليها ، أما الجزء الأول فانه أدخل فى النظريات السياسية ، ولهذا نقدمه الى المهتمين بالعلوم السياسية ، فيضاف مثل هذا الكتاب الى ما يتجه اليه الاهتمام عادة من كتابات الفقهاء وأصحاب الفرق الاسلامية . قد يكون جانب النظرية عند هذا الفريق الأخير أكثر صلابة فى الأسس المذهبية أو الفكرية التى يقوم عليها ، ومع هذا يبقى

« للفخرى » وما احتوى دلالة خاصـــة ، انه يعبر عن الرأى العـــام المثقف ، فى نظرته الى تشـــكيل الدولة الاسلامية ، وتصويره لعلاقات القوى المكونة لها .
وهنا نلاحظ أن المؤلف أعطى أهمية عظيمة لشخص قائد الدولة ، أو الملك ، وعلق عليـــه أهم أســباب التقدم والازدهار والنصر الذى يتحقق للدولة ، ككل ، فى كافة الميادين ، وأرجع اليه جل ، ان لم يكن كل أســباب التدهور والاضطراب التى تلحق بالبـــلاد فى عصره ، فكأن ابن طباطبا أخذ بالرأى المشــهور الذى يجمله القول بأن المجتمعات كالسمك تفسد من رؤوسها ، فاذا كان الرأس صالحا صلح كل شىء والعكس صحيح ، ولم يأخذ بالرأى الآخر ، الذى تبلوره العبـــارة : كيفما تكونوا يول عليكم . ومع هـــذا فاننا نلمح اهتماما بالمجتمع ، ماثلا فى مقدمة الفخرى ، أو لنقل : اهتماما بالثقافة السياســـية وضرورة اتاحتها للجميع ، حكاما ومحـــكومين ، كبارا وصـــغارا . يقول ابن طباطبا : « وهذا كتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور ، ويدبر الأمور ، وان آنصفه الناس أخذوا أولادهم بحفظه ،

وتدبر معانيه ، بعد أن يتدبروه هم ، فما الصغير بأحوج اليه من الكبير » • بل يمضى المؤلف الى خطوة أبعد ، حين يرى أن التربيــة السياســية أهم من التربيــة الاجتماعية ، لسبب محــدد تبرزه كلمــاته • يقول :

« وهذا الكتاب ان نظر بعين الانصاف رئى أنفع من الحماسة التى لهج الناس بها ، وأخذوا أولادهم بحفظها، فان الحماســة لا يستفاد منها أكثر من الترغيب فى الشجاعة ، والضيافة ، وشيء يسير من الأخلاق ••• وهذا الكتاب يستفاد منه هــذه الخصال المذكورة ، ويستفاد منه قواعد السياسة ، وأدوات الرياســة • فهذا فيه ما فى الحماسة ، وليس فى الحماســة ما فيه »

« فصاحب الفخرى » اذا يرى أن التربية السياســية بطبيعتها اجتماعية ، أو متضمنة للأخلاق الاجتماعية ، دون العكس ، وهذا صحيح بالطبع ، ودقيق فى تصور العلاقــة بين السياســة والنظــام الاجتمــاعى ، وبين السياسى ، أيــا كان موقعه ، والجمهور الذى يسوسه، ويدبر أموره •

يهتم المؤلف ـ كمـا ذكرنا ـ برأس الدولة ، ويسميه « الملك » اختصارا وخروجا من تعدد الألقاب فى عصره ، وفى غير عصره ، فيقول : « ان الملك الفاضل هو الذى اجتمعت فيه خصال ، وعدمت فيه خصال » . ويجعل « العقل » أول الخصال المطلوبة ، فبه تساس الدول ، بل الملل ، وهـذا شرط منطقى ، يأتى بعده العدل ، ثم العلم . ويتوقف عند صفه العلم ، كى يبين خطره ، والنوع المطـلوب منه للملك ، قـال بعض الحكماء : الملك اذا كان خلوا من العلم ، كان كالفيل الهائج لا يمر بشىء الا خبطه ، وليس المراد بالعلم فى الملوك التبحر أو التخصص فى فرع من فروع المعرفـة والاغراق فى تتبع مسائله ، فهذا التخصص الحـاد ليس مطلوبا منه ، بل هو ضد تفتح عقله وفـكره وتنوع قدراته . قال معـاوية : ما أقبح بالملك أن يبـالغ فى تحصيل علم من العلوم . وانما المراد من العلم فى الملك هو ألا يكون له أنس بها ، الا بحيث يمكنه أن يفاوض أربابها فيها ، مفاوضـة يندفع بها الحال الحاضر ، ولا ضرورة فى ذلك الى التدقيق . بعبـارة عصرية :

ان ثقافة رأس الدولة ينبغي أن تتنوع في حدود المستوى الذي يجعله قادرا على مخاطبة أهل الاختصاص والفهم عنهم . ويمضي صاحب الفخرى يستكمل الصفات الواجبة ، فيذكر الخوف من الله تعالى ، والعفو عن الذنوب ، وحسن الصفح عن الهفوات ، والكرم ، والهيبة ، والاطلاع على غوامض أحوال المملكة .. الى آخر الصفات المستحبة ، ليمضي عنها الى الصفات العكسية . وهذا الاهتمام العظيم بقمة الهرم الاجتماعى له أسباب يذكرها ابن طباطبا ، أسباب نفسية مركوزة في طباع البشر ، فالملك ليس مجرد شخص ، انه قدوة . ومثال . تحت عنوان « الناس على دين ملوكهم » يقول : « واعلم أن للملك أمورا تخصه يتميز بها عن السوقة ، فمنها أنه اذا أحب شيئا أحبه الناس ، واذا أبغض شيئا أبغضه الناس ، واذا لهج بشيء لهج به الناس طبعا أو تطبعا ليتقربوا بذلك الى قلبه » . ويحيلنا المؤلف على المشاهد من أحوال الناس زمن الخلفاء الراشدين ، وكيف ساد الخلق الاسلامى ، ثم كيف تحول الأمر في زمن بنى أمية الى العصبية

المعروبة ، ثم .. كيف أصبح الميل الى الترف ، وحياة البذخ تيارا غالبا فى العصور العباسية .

ويفطن ابن طباطبا الى معنى قريب مما بنى عليه كتاب « العقد الاجتماعي » المشهور ، فيذكر أن من الحقوق الواجبة للملك على الرعية التعظيم والتفخيم لشأنه فى الباطن والظاهر ، كما أن من حقوق الرعية على الملك حماية البلاد ، وتحصين الأطراف ، وحفظ الأمن ، ثم يقول فى عبارة جامعة رائعة : « فهذه حقوق تلزم السلطان ، تجرى مجرى الفروض الواجبة ، وبهذه الأمور تجب طاعته على رعيته » . هذا قليل من كثير كتبه صاحب الفخرى فى كتابه عن شخصية الملك ، فاذا قرىء الجزء التاريخى الخاص بدول الاسلام ، من عهد الراشدين الى سقوط بغداد ، وانقضاء العصر العباسى ، يستطيع المتأمل والباحث أن يجد معالم نظرية سياسية عن أساس الملك ، وقانون التطور فى علاقات القوى ، التى يتكون منها المجتمع ، وعلى أى أساس كان صعود الممالك ، ولماذا هبطت بعد حين ؟ !

المحاسن والمساوىء

١٣

« المحاسن والمساوىء » هو الكتاب القديم الذى نعنى به فى وقفتنا التراثية هـذه ، وقد ألفه الشيخ ابراهيم بن محمد البيهقى ، جمع فيه بين فنون شتى ، من التاريخ ، والسير ، والنوادر ، والطرائف والأشعار ، والأمثـال ، والأقوال الحكيمة . وليست هـذه ميزة يختص بها ، فتاريخ الفكر العربى ، يعرف عددا من الكتب الموسوعة التى جمعت بين هذه الفنون ، وأكثر منها على سبيل الاستطراد أو الشمول ، بدءا بالبيان والتبيين للجاحظ ، واستمرارا مع عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد ، لابن عبد ربه ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، وغـير هؤلاء أيضـا ، أما ما يختص به « المحاسن والمساوىء » فهو طريقته فى تقديم المعلومات، انه ــ كما جاء فى عنوانه ، يذكر محاسن الشىء ، ثم مساوئه كلا فى باب مستقل على التوالى . فاذا احتكمنا

الى المنهج فان كتاب البيهقى يكون مسبوقا فى بابه بكتاب واحد للجاحظ ، هو كتاب «المحاسن والأضداد» والعلاقة بين العنوانين لا تخفى ، فأضداد المحاسن هى المساوىء بالطبع . ولكن ، من الحق ان هذه الصلة لا تتجاوز الاطار العام الى المحتوى ، فقد اعتمد عليها الجاحظ من قبله ، بحيث لا يصح القول بأنه مقلد فى أكثر من المنهج . وسواء كان العنوان : المحاسن والمساوىء ، كما أراد البيهقى ، أو المحاسن والأضداد ، كما شاء الجاحظ من قبله ، فان هذا المنهج القائم على المقابلة بين الضدين ، يعتمد على مبدأ فنى ، فالأديب المقتدر — فى رأى طائفة من النقاد العرب ، هو الذى يستطيع أن يمدح الشىء وأن يذمه فى نفس الوقت ، أى أنهم ربطوا بين المهارة الفنية ، والقدرة على اكتشاف وجه حسن فى الشىء الذى يستحق الذم : ووجه سيىء فى الشىء الذى يستحق المدح . على أننا نرى فى هذا المنهج رأيا آخر لم يلتفت اليه القدماء ، ولعل تأليف هذا النوع من الكتب يدل عليه ، دون أن ينص على ذلك ، فنرى أنه يعبر عن اقتناع بمبدأ

النسبية ، فليس هنالك شيء كله حسن مطلق ، ولا شيء كله سوء مطلق ، وانما يتوقف الحسن ، وضده على مجموعة من الشروط الموضوعية أو الذاتية ، تكون فى الشخص ، أو الموقف ، أو الحاضرين ، الى آخر ما يحيط بأى عمل ، وصفة من ظروف . ان الأشياء لا توجد فرادى ، حتى وان بدت للنظرة القاصرة كذلك ، فكل عمل يأتى فى سياق ، سياق من الزمان ، والمكان ، والشهود وغير ذلك من الظروف المحيطة . وعلى انسجامه مع هذه الظروف وملاءمته للسياق الذى جاء فيه يتوقف نصيبه من القبول أو الرفض ، من الحسن أو ضد ذلك . هذه قضية لها أساس فلسفى ، ليتها تحظى بقدر من العناية فى تحليل مادة هذه الكتب . فاذا صح ما رأيناه فان أدبنا العربى يكون قد سبق الى مبدأ عميق الدلالة ، فى تصوير الفعل الانسانى ، وعلاقات الأشياء ، بل فى تصوير الوجود الانسانى ، وصورة الكون .

وهذه القضية ــ على أهميتها ــ ليست كل ما نريد من وقفتنا مع كتاب الشيخ ابراهيم البيهقى .

لقد ذكر عشرات من المحاسـن لأشـياء تعد بالعشرات أيضا ، ما لبث أن ذكر مساوئها ، محاسـن المفاخرة ، ومساوئها ، محاسن الشـكر ، ومساوئه ، محاسـن الرجال ، ومساوئهم ، محاسن الندامة ، ومساوئها ، حتى محاسـن الكـذب ، ومحاسـن الحبس ، ومحاسـن المزاح ... فنون شتى ، لا تعتمد على براعـة الذهن بقدر ما تعتمد على كثرة المحفوظ . والخبرة بالتراث والمعرفة بالرجال والأخلاق . لقد بدأ الكتاب بمحاسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحاسن صحابته ، وبخاصـة خلفـاؤه الراشـدون على ترتيب امارتهم للمؤمنين . وفى هـذا القسـم سجل البيهقى صفاتهم العظيمة ، وأعمالهم الصالحة فى خدمة العقيدة ، واعلاء كلمـة الله .

وتتوقف عند بعض ما كتبه عن معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتنبه هنا ، الى أن ما ذكره البيهقى فى كتابه لم ينفرد به ، ولم يسبق اليه ، وأتنا تثير هـذه القضية الحاضرة من خلال كتابه ، لوقفتنا معه ، ليس أكثر . لقد أضاف الى رسول الله معجزات

وغرائب ، لم يكن اثبـات نبوته بحاجة اليها ، ولا هى تضفى على شخصه الكريم ما ليس متوفرا له من نبل الصفات . ولسنا بصـدد احصاء المعجزات المحمدية ، وما الذى أجمع عليـه كتاب السير ، وما الذى انفرد به بعضهم ، يدفعه حسن النية الى تسجيل كل ما يساق اليه ، كما قال ابن اسحق معتذرا عن كتابة أشـعار عربية مقفاة موزونة حسب أعاريض الخليل منسـوبة الى آدم أبى البشر ، والى هود وثمود !! ان الاجمـاع منعقد على أن القرآن الكريم معجزة محمد الخالدة ، وقد صدق بعض علمائنا المعاصرين حين أشار الى هذا الفارق بين معجزة محمـد ، ومعجزات من سـبقه من الأنبياء . ان شيئا لم يبق لهم غير ما يذكره القرآن لهم ، فلا عصـا موسى بقيت ، ولا الرجل الذى أحياه عيسى نعرف له قبرا ، ولا ناقة صـالح تركت أثرا ؛ ولكنك اذا سألت عن معجزة محمد ، فى أى مجلس ، ستمتد أكثر من يد تستخرج المصاحف من الجيوب ، وليس ببعيد أن يتلى عليـك كامـلا من أفواه بعض الجالسين !! هـذا هو القرآن معجزة محمد صلى الله

عليه وسلم . فكيف عرض الكتـــاب محاسن هــذا الرسول !! انه يتوقف عندما أسماه « محاسن شهادات السباع له بالنبوة ، وننبه ـ مرة أخرى حتى لا نظلم البيهقى ـ أنه لم يقتصر على هذا النوع من المعجزات ، ولكنه أعطــاه حجما واضحا ، ولهذا تثير القضية حول هذا الموضـــوع ، وهو كيف نكتب سيرة الرســول ، ونقدمها الى شبابنا المثقف ، الذى يتعلم وفق منهج يحرص على تنمية الادراك العقلى ، ويحتكم الى العقل والتجربة فى كل شىء . وصحيح أن للمعجزة منطقهـــا الخاص . كما أنه من الصحيح أن معجزة محمد عقليـــة قبل كل شىء . يقول صاحب المحاســن والمساوىء :

« فمن ذلك ما روى أن أبـــا ســـفيان بن حـــرب ، وصفوان بن أمية ، خرجا من مكة ، فاذا هما بذئب يكد ظبية ، حتى أن نفسه كاد أن يبلغ ظهر الظبية ، أو شبيها بذلك ، اذ دخل الظبى الحرم فرجع الذئب ، فقال أبو سفيان : ما أرض سكنها قوم أفضـــل من أرض أسكنهـــا الله ايانا ، أما رأيت ما صنع الذئب . أعجب منه حين رجع . فقال الذئب : أعجب من ذلك ،

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بالمدينة ، يدعوكم الى الجنة ، وتدعونه الى النار • فقال أبو سفيان : واللات والعزى لئن ذكرت ذلك بمكة ، لنتركها خلوا • وهناك ذئب آخر ، تحدث الى رافع بن عميرة بن جابر ، وقد أخذ شاة من غنمه ، فطارده رافع ، وقال متعجبا : عجبا للذئب يحتمل ما حمل • فأقعى الذئب غير بعيد ، وقال : أعجب منه ، أنت أخذت مني رزقا رزقنيه الله تعالى • فقال رافع : يا عجبا للذئب يتكلم ، فقال الذئب : أعجب من ذلك الخارج من تهامة ، يدعوكم الى الجنة ، وتأبون الا دخول النار • وتذكر القصة أن الرجل أقبل على النبي ، وقد جاء جبريل ، فأنبأه بما كان ، فصادق جبريل على ما سمع » •

لا مفر ، فى هذه الحالة • من الفصل بين النية ، والعمل ، فالذين أضافوا هذه القصص الى سيرة الرسول كانت نيتهم طيبة ، أو هذا ما ينبغي أن

نعتذر به عنهم ، أرادوا الوعظ والاغراب ، وتسجيل الخوارق لتأكيد الخصوصية ، فألحقوا بالسيرة الانسانية العطرة ما ألحقوا بها ، مما يصدم الفكر ، ويبلبل الثقة ، ويشتت الاعتقاد ، وفى الكتاب نفسه ، أخبار وأحاديث رائعة ، تؤكد بشرية محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وخضوعه لكل ما يخضع له البشر ، فيما عدا تلقى الوحى ، وما يجب له من العصمة ، فقد كان ــ كما يذكر البيهقى ــ يأكل على الأرض ، ويجالس الفقراء ، ويمشى فى الأسواق ، ويتوسد يده ، ولم يأكل قط وحده ، ولا ضرب عبده ، ولا نزع يده من يد مصافحه حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ، وكان يقول : لو دعيت الى ذراع لأجبت ، ولو أهدى الى كراع لقبلت . وقد ملك جزيرة العرب ــ كما يقول الكاتب ــ ومع هذا توفى ــ عليه السلام وعليه دين ، ودرعه مرهون فى ثمن طعام أهله ، لم يبن دارا ولا شيد قصرا !! هذه ــ فى رأينا ــ صورة محمد ــ صلى الله

عليه وسلم ــ النبى الانسان ، وهى الصــورة التى ينبغى أن تقدم للأجيال الصاعدة ، من الفتيان والشباب، ولعلنا نفكر بطريقة عملية ، فى العودة الى تراث السيرة النبوية ، من خلال مجمع علمى من كبار علمائنا الموثوقين الأجلاء ، لينفوا عن هــذه السيرة العطرة ، كل ما ألحق بهــا من خرافات ، حتى وان كان مصــدرها حســن النية ، فلن تكون النيــة ، والحــالة هــذه بديلا عن الفعل !! •

كتـاب الصـناعتين

١٤

القضية الحاضرة هى الطابع الخـاص ، للحضارة العربية الاسلامية وضرورة الحفاظ على هـذا الطابع ، بابراز وتحديد ملامحه فى ماضى هذه الحضارة وتأصيله وتنظيمه فى حاضرها ، بحيث لا يعوق تقدمها على أسس من المنهج العلمى ، الذى يحتفظ بسر التقدم فى عصرنا •

الكتاب القديم الذى أثار هذه القضية الحضارية الحاضرة ، بعيد كل البعد عن مشـكلات الحضـارة وقوانين التطور ، انه كتاب فى البلاغة ، وعلى هـذا فان دائرة اهتمامه لا تتجـاوز صناعة الكـلام ، وشروط موافقته لمـا فى نفس قائله ، ومدى توافقه مع الموقف الذى يقال فيه ، والموضوع الذى يتناوله • الكتـاب القديم هو كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، أحد أعلام القرن الرابع الهجرى ، القرن الذى شـهد قمة ما بلغتـه الثقافة العربيـة ، وما أنجزت فى ميادين

التقدم على اختلافها • الصناعتان المشار اليهما فى عنوان الكتاب هما : الشعر والنثر • وقد أحسن أبو هلال وأصاب اذ اعتبر فنون الأدب صناعة ، فلكل نشاط ابداعى قوانينه وأصوله ، ولا قيمة للموهبة ما لم تعمقها الثقافة ، وتنظمها المعرفة العلمية • هذا موضوع آخر آثاره عنوان كتاب الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ، قد يثير قضية حاضرة أخرى ، عن أهمية تجديد البلاغة العربية ، وربط ماضيها بحاضرها ، وبخاصة أن هذا الرجل ــ أبا هلال ــ عند كثير من الباحثين المعاصرين ، يحمل مسئولية تحويل البلاغة العربية من أن تكون تذوقا وجمالا يصدر عن الطبع والفطرة ، الى أن تكون قواعد جامدة ، وطلاء خارجيا زائف البريق •

هذه قضية جديرة بالتفكر ، وقد شغلت ، وينبغى أن تشغل الباحثين ، كى نجدد روح اللغة الفنية ، وتظل البلاغة العربية قادرة على ارشاد الأديب المبدع الى أسرار الجمال الأدبى ، فى أنماط التعبير الحديثة ، كالمسرح والقصة ، كما فى أنماط التعبير القديمة من شعر ونثر • لقد كان الحس الدينى يسيطر على عقول

العلمـــاء من القدماء ، حتى وان كان مجـال علمهم ، أو عملهم لا يتصل بشكل مباشر بنصوص العقيدة . انه يقع فى المركز من تفكيرهم ، وهـذا بدوره يشع على ما حوله ، وبذلك تأخذ الدراسات القديمة من هذه الاشعاعات مسحة روحية شاملة هى التى نرى أنها تميز الحضارة العربية الاسـلامية وتمنحها ملامحهـا المميزة لها عن حضارات سابقة عليها ، أو لاحقة . كيف يبدأ أبو هلال كتابه عن الصناعتين : الشعر والنثر ؟ لنقرأ مقدمته على مهل ، ونتأمل ، لنستكشف من أين ينبع الاهتمـام بالظاهرة البلاغيـة ، فنعرف سر القوة الكامنة فى العقل العربى وسر الأصـالة فى حضارته ابان ازدهـارها . يقول : « ان أحق العـلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ــ علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف اعجـاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق ، الهادى الى سـبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة ، وصحة النبوة ، التى رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها » .

هكذا تأخذ المعرفة بالله تعالى المكان الأول فى تفكير المسلم مهما كان نوع النشاط العلمى الذى يزاوله . فهذه المعرفة بالخالق هى بمثابة الدستور ، قانون القوانين ، وهى بهذا تعنى أن من لا يعرف الله سبحانه لا يحق له أن يشتغل بالعلم ، لأنه سيكون علما عاريا عن المشروعية ، اذ تجرد من المبدأ الأخلاقى الأول ، وهو الايمان ، الذى يمنح العلم غايته الانسانية الرفيعة وأساليبه الأخلاقية البناءة . ثم تأتى البلاغة — فى رأى أبى هلال — لتأخذ المكان الثانى مباشرة ، ولكن .. ليس لذاتها ، وانما لأنها وسيلة الى غاية ، وأى غاية ! ؟ انها الخطوة المكملة للمعرفة بالله تعالى . تقول المقدمة :

« وقد علمنا أن الانسان اذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه باعجاز القرآن ، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما شحنه من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه ، وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، الى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت

عقولهم فيها » . انتهى كلام أبى هلال فى مقدمة الصناعتين ، ومنه يتضح أن للبلاغة هدفا دينيا أوليا ، هو تمكين الايمان بمعجزة القرآن ومن ثم نبوة محمد عليه السلام ، هذا بعد أن جعلها المطلب الأول بين العلوم ، بعد المعرفة بالله سبحانه وتعالى .

هذه الروح الدينية ، وهذه النزعة الأخلاقية ، ليست وقفا على مقدمة الكتاب ، ليست مجرد بداية تقليدية ، استدعاها العرف والتقليد ، أو تذكر للتبرك ، ثم نجد محتوى الكتاب نافيا للاشراقه التى أطلقتها المقدمة . اننا نجد هذه الروح ماثلة وحاضرة فى أبواب الكتاب جميعا ، ومن الصحيح أن القرآن الكريم اعتبر الغاية فى البلاغة والفصاحة ، وأن من المتوقع لمؤلف مسلم يطرق هذا العلم أن يكثر من الاقتباس عنه ، وأن يعول كثيرا على آياته ليستخرج منها قوانين الجمال الأسلوبى ، وأن هذا المتوقع هو ما حدث بالفعل من أبى هلال ، كما حدث من غيره . ولكن ما نعنيه بسيادة النزعة الروحية الأخلاقية يتجاوز الاحتجاج بالأسلوب القرآنى ، الى الاحتكام للتوجيه

القرآنى ، وبينهما فارق واضح . ونقدم هنا مثلين لتوضيح ما نريد . فى مجال تعريف الفصاحة يذكر أبو هلال أنها والبلاغة بمعنى واحد وان اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما ، انما هو الابانة عن المعنى ، والاظهار له . ثم يقول : « وقال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آله البيان » ويقصد — سلامة النطق ، ولكن ، ماذا رتب أبو هلال على اعتبار أن الفصاحة تعنى سلامة النطق ؟ يقول : « لهذا لا يجوز ان يسمى الله فصيحا ، اذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآله (أى اللسان) ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالاله ، ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان » .

من الواضح أن هذه قضية كلامية ، ترجع الى علم التوحيد ، وقد أثارها المتكلمون من المعتزلة وغيرهم فى القرن الهجرى الثانى ، ومع هذا فانها وجدت لها مكانا فى صميم التفكير البلاغى ، لأنها تتصل بتنزيه الذات الالهية عن كل شائبة من شوائب المادة أو التجسيد . والمثال الثانى نجده فى اختيارات

أبى هلال من جيد الشعر ، ان الجودة عنده ليست صفة للألفاظ وحدها ، أو للصور والأخيلة . انها تتجه الى المضمون أيضا ، وهو ذو نزعة روحية أخلاقية أولا ، ثم تتحقق بقية الشروط لمنحه صفة الشعر الجيد . من اقتباساته التى أعجب بها قول معين بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبـــة
ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها
ولا دلنى رأيى عليها ، ولا عقلى

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبـــة
من الدهر الا قد أصابت فتى قبلى

ولست بمـــاش ما حييت لمنكر
من الأمر ، لا يمشى الى مثله مثلى

ولا مؤثرا نفسى على ذى قرابـــة
وأوثر ضيفى ما أقام ، على أهلى

يمـــكن أن نجد عشرات المقطوعات الشـــعرية ،

والنثرية ، من هذا النسق ، فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، ويمكن أن نستكشف من خلالها ، بل ينبغى علينا أن نفعل لنصل الى تحديد معالم النظرة الدينية ، والمتجه الروحى للحضارة العربية الاسلامية .
ان هذا التمييز له غاية جليلة ، هى تأكيد المذاق الخاص ، والشخصية المستقلة لحضارتنا فى عصر ازدهارها ، وليس يقل عن هذا جلالة وأهمية ، أن نعرف فى عصرنا الحاضر ، أن هذه النزعة الروحية الاسلامية الأخلاقية ، لم تكن أبدا نفيا لتقدم العلوم ، ولا مصادرة لحرية الفكر ، ولا مانعا للاجتهاد ، وبهذا التوازن الرائع بين وحدة المركز الأخلاقى ، فى الضمير العربى الاسلامى ، وحرية العقل فى البحث والابتكار ، ارتفعت قمم الحضارة العربية ، وشع نورها فى آفاق المكان ، والزمان .

السلوك : لمعرفة دول الملوك

١٥

من أخطائنا الفكرية الشائعة ، استخدام أفعل التفضيل فى وصف الأشخاص والآثار العلمية ، ففلان من العلماء أعظم من كتب فى موضوع كذا ، وأغزل بيت قالته العرب هو كذا ، وأوفى كتاب فى موضوع ما هو كتاب فلان..الى آخر صيغة أفعل ، التى تعنى التفضيل المطلق ، وهو سلوك غير علمى ، ويمكن أن يكون ضارا من الناحية المنهجية ، لأنه يصرف الفكر عن البحث فى نطاق جديد ، يصحح الفكرة السائدة ، التى ينبغى أن تخضع لنقد دائم ، واختبار مستمر ، حتى تكتسب حقها فى الوجود . هذه قضية أولى ، قديمة حاضرة ، لانزال نعانى من سيطرتها على أفهام الباحثين . وقضية ثابتة ، بمثابة خطأ فكرى أو منهجى آخر ، وهو أننا نقرأ الكتب القديمة فى ظل تصور منهجى حديث ، لم يكن المؤلف يعرف أو يعترف به ، فعامة المثقفين

يعتبرون الجاحظ أديبا ، وما يكتبه أدبا ، وهـذا حق في عمومه ولكنه ليس كل الحق ، وفى أدب الجـاحظ تحليل اجتماعى ، وآراء سياسية ، وأشارات اقتصادية ، بل نجد فى كتبه ما يشير الى رسـوم الخلافة ونظـام الحكم ، أو ما يعرف فى زماننا بأصول البروتيكول . وهذا يعنى أن تصنيف كتب الجاحظ على أنها أدب ، فيه قصـور ، وفيه صرف لأنظار الباحثين فى السياسة والاقتصـاد والاجتمـاع عن قراءة هـذه الكتب ، والافادة منها ، وفيه ظلم لتراثنا الحضارى فى مجـال العلم ، اذ يظل المختص بهذه الجوانب على ظنـه بأن العرب لم تعرف الكثير فى هـذه العلوم ، وهى قد عرفت ، وانما جاء القصور منه . ومهما يكن من أمر الجـاحظ وكتبه فاننى لم أرده لذاته ، أو لمؤلفاتـه ، وانما لوضوح المثل ، وشهرة الاسم ، والأمر يتكرر بالنسبة لكتب كثيرة ، ينبغى أن تعاد قراءتها ، وينبغى أن تأخذ مكانها فى عقول الباحثين المعاصرين سـواء اتصلت بالحقل الذى اختصوا به ، أو لم تتصل للوهلة الأولى ، فالحكم على الشىء فرع عن تصـوره ، وليس

من العدل تصنيف التراث قبل معاناته ، والغوص فى بحره المحيط . لقد تحركت كل هذه المعانى فى النفس من خلال كتاب يضعه التصنيف الفنى بين كتب التاريخ ، وهذا واضح فى عنوانه : « السلوك ، لمعرفة دول الملوك » للمقريزى . وهو من مؤرخى العصر الأيوبى ، ثم العصر المملوكى ، فى مصر والشام بخاصة ، حيث سيطرت هاتان الدولتان وخاضتا أعظم المعارك فى العصور الوسطى الاسلامية ، ضد الصليبيين ، ثم المغول ، فيما بين مصر والشام وبجنودهما . واذا فان وصف كتاب المقريزى : السلوك، لمعرفة دول الملوك ، بأنه كتاب فى التاريخ ليس خطأ ، ولكنه ليس كل الصواب . ولهذا ينبغى تعديل هذا الوصف ، الذى يصرف عنه عالم الاجتماع ، والباحث فى فن العمارة الاسلامية ، والمهتم بالجغرافيا البشرية ، والدارس للعادات والتقاليد والفنون الشعبية . كل أولئك يجدون الكثير من بغيتهم فى كتاب السلوك للمقريزى ، وكل أولئك سيعدلون الكثير من أحكامهم على صور الماضى ، وجهود العرب العلمية ، اذا

ما اتصلوا بهذا الكتاب ، وقرأوا مادته بشيء من الأناة ، لا يتعجلون فى اللهاث وراء الأحداث الكبيرة ، كتولى السلاطين ، ووقوع المعارك وسقوط الدول ، وانما يتصيدون بتمعن حركة الأيام ، وعلاقات البسطاء وردود أفعالهم تجاه الحوادث الكبرى فى زمانهم ، فربما أعطت جملة تائهة فى زحام السطور أكثر مما يعطى كتاب ، وربما دلت حادثة عابرة على أمر حاول كتبةالسلطان اخفاءه ، بل الايحاء بعكسه فى عشرات الصفحات . لقد عاش المقريزى فى مرحلة زمنية غاصة بالحوادث الخطيرة ، ولكن كتابه لا يستمد أهميته من تسجيله لهذه الحوادث ، التى يشاركه فيها غيره من مؤرخى العصور الوسطى ، انه يستمد أهميته من التفسير الاقتصادى والاجتماعى لحوادث التاريخ ، أو على الأقل ، هو يربط بين الحادث التاريخى ، والأسباب الاقتصادية والاجتماعية التى أدت اليه ، أو ترتبت عليه ، وهو فى هذا تلميذ لابن خلدون ، وقد درس على يديه حين كان بمصر ، وتأثره بمنهجه ليس بمستغرب ، فليتنا حين نفاخر بابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع ،

لا ننسى المقريزى ، والطرطوشى ، والجبرتى ، وغيرهم ممن استمروا بعده ، وأضافوا اليه وظلمتهم صيغة أفعل لبظل ابن خلدون أوحد المؤلفين فى مجـاله !! لقد ألف المقريزى كتابا بعنوان « اغاثة الأمة بكشف الغمـة » سجل فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر ، وهى التى كانت تدعى فى العصر الرومانى « سلة الخبز » لكثرة خيراتها ، واتساع عمرانها ، وطاقتها الهائلة على اعاشة البشر . لقد كان الناس ، وربما المؤرخون من قبله ، يرجعون هـذه المجاعات ، وما يتبعها من أوبئة وموجات غلاء ماحقة ، يرجعونها الى أسباب غيبية ، وهى غضب الله على أهل مصر ، فاذا التمسوا سببا ماديا قالوا هبوط الفيضان ، ونقص النيل والمطر . أما المقريزى فيقول شيئا آخر ، يرجع الى القلق السياسى ، والصراع على السلطة ، وسوء تدبير الحكام وجورهم ، وانصرافهم عن العناية بتدبير المصالح العامة . وهـذا الربط بين السياسة والاقتصاد هو ما يقبله العقل ، ويدل عليـه الواقع .

يهتم المقريزى فى كتابه : « السلوك » بأمور قد تبدو صغيرة أو تافهة ، ولكنه من موقع المراقب المعاصر قد أدى بها خدمة علمية لمجالات شتى ، وعلى سبيل المثال ، يصف نظام الحياة اليومية لجيش صلاح الدين ابان حصار المدن فى فلسطين ، وقد تطول اقامة هذا الجيش فى العراء المترامى حول القلاع والمدن المحاصره، شهورا طوالا ، ومن بين ما يهتم به فى وصف هذه الحياة اليومية ، كيف وأين يستحم الجنود ، ومن الذى يتولى ذلك ؟ يقول : « وكان فى المعسكر آكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ، ويحفرون ذراعين فيخرج الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ويسيرونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطبا من البساتين التى حولهم ، ويحمون الماء فى قدور ، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر » بل يشير المقريزى الى حرب الدعاية التى ينشرها الصيليبيون للتأثير على أعصاب المسلمين ، واضعاف مقاومتهم ، فى تسجيله لحوادث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، يقول : اجتمع

الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطــارد والمشترى وزحــل وأظفار الذئب ، فى برج الميزان ، أربع عشرة ساعة ، فاجتمع المنجمون كلهم ، وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه ولابد كائن وواقع ، فتنقلب الأرض من أولهــا الى آخرهــا ، وأنه لا يبقى من الحيوان شىء الا مات ، ولا شجرة ولا جدار الا سقط ، وكان معظم هذه الحكمة عن بلاد الروم ، وأرجفوا بأنها هى القيامة، فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبــال ، وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم » ثم يصف المقريزى كيف واجه الناس اليوم المحدد لنهاية العالم ، وكيف مر دون حدوث ما أرجفت به الروم ، « فأكذبهم الله » ، كمــا قالت عبارته ، بل سلط عليهم السلطان الملك النــاصر صلاح الدين ، فأخذ القدس ، وكسرهم وأخذ كبارهم. هذه اذا حرب الدعاية ، وهى تنجح بمقدار ما يسود حيــاة الناس من ميــل الى الخرافــة ، ومن هرب الى الخوف الدفين من الفناء .

يقدم كتاب المقريزى صورة انسانية رائعة لواحد من مشاهير السلاطين المماليك ، انه الناصر قلاوون ،

سجل له شغفه بالعمارة ، والبناء ، واهتمامه بالزراعة وتوسيع الرقعة المعمورة باصلاح الأراضى ، وحفر الأنهار ، واقامة الجسور والسدود ، واحضار محاصيل جديدة من الفواكه والبقول . ولم يكن هذا وقفا على العاصمة ، بل امتد على مساحة البلاد كلها ، ومن شأن هذا أن يعدل من الفكرة الشائعة عن المماليك ودولتهم ، فلتكن — من أجل هذا — آخر قضية حاضره يثيرها كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ضرورة أن نوحد رؤيتنا وأحكامنا على التاريخ، لايزال الكثرة منا ينظرون الى المماليك على أنهم دخلاء وأنهم أساؤوا الى تاريخنا ، ومع هذا فاننا لا نتوانى بأن نفاخر بأمجادهم التى حملوا عبأها الأكبر ، فهم الذين أجهزوا على الصيلبيين ، فأكملوا صنيع صلاح الدين وخلفائه ، وهم الذين خاضوا عين جالوت ، وصدوا المغول عن الشرق . فليتنا نكيل بمكيال واحد ، بل ليتنا نعرف الحقيقة أولا ، البداية أن نعرف ، ثم ... لن يكون الحكم بعد المعرفة ، بعيدا عن الانصاف .

الموشى : فى الظرف والظرفاء

١٦

« الموشى » هو عنوان الكتـاب القديم الذى نتوقف عنده ، والوشى هو النقش والزخرفـة والزينة ، ومع هذه الايحاءات فان الكتـاب لا علاقة له بالفنون التشكيلية ، وربما دل تمام اسمه على موضوعه ، فهو « الموشى فى الظرف والظرفـاء » ، ولن يخلو اسـم مؤلفه من بعض الطرافة فهو « الوشـاء » ، وهـذا لقب غلب على اسمه الحقيقى محمد بن اسحاق . كما نرى .. حاول المؤلف أن يوحى لقارىء كتابه أنه لايزيد عن مجموعة من الطرائف والنوادر والحوادث الخفيفة ، وربما المضحكة المسلية ، وبخاصة أننا فى زماننا نخلط – خلطـا مؤلمـا أحيانا – بين الشـخص الظريف . والساخر ، والفكة ، وربما الخفيف الظل ، ونعتقد أنهم جميعا شخص واحد ، أو حالات متقاربة ، والحق أنهم ليسوا كذلك ، وسنكتفى بتحديد مفهوم الظرف ، لعل

هذا التحديد أن يعين على توضيح الفروق • وليس هــذا التصحيح لمفهوم مصطلح قديم ، الظرف ، هو القضية الحــاضرة التى نعنى بها من خلال العرض العام لمــادة « الموشى فى الظرف والظرفاء » ، على أهميــة احيــاء المصطلحات وتحديدها من الناحيــة العلميــة والحضارية • اننا نريد تصحيحا أكثر أهمية ، تصحيح موقع هذا الكتاب فى خريطة الفكر العربى ، وفى اهتمام القارىء العربى • لقد شاع عندنا قول يجيز الحــكم على الكتاب من عنوانه ، وهذا رأى مبتسر وخاطىء ، فكم من كتابات جــادة ، بل عظيمــة الجد ، توارت ــ لسبب أو لآخر ــ وراء لغة الهذر ، وعابث الكلام ، لتمرر أفكارا خطيرة ، حالت ظروف طارئة أو دائمــة دون العرض الصريح المباشر لها • هــذا قول عــام نرسله ولا نعنى تماما أنه يصــدق على الموشى ، وكل ما أردناه أن الكتب لا ينبغى أن تحــاكم أو تصنف بعناوينها ، بل بمادتها ومحتواها ، وأننا اذا رجعنــا الى مادة هــذا الكتاب لأبى الطيب محمد بن اسحــاق الوشاء ، سنجده يرسم صورة زاهية لقواعد الســلوك

الاجتماعي كما ينبغى أن يكون بين أبناء الطبقة الراقية، أو العالية ، ومن يحبون التعلق بأساليبهم من أبناء الطبقة الوسطى ، وقواعد السلوك هذه ، أو فن الاتيكيت ، تدل على ما بلغته الحضارة العربية من رقى ورهافة ، شملت كل جوانب الحياة الاجتماعية والمادية ، لم تترك شيئا حتى وضعت له أصولا ، ونبهت فيه الى محاذير ، وأرشدت الى واجبات وأظهرت خطر المخالفات . واذا فان الفتى الظريف ، فى الحدود التى رمى اليها المؤلف فى كتابه ليس الشخص الخفيف الظل ، أو المرح الضاحك ، أو الفكه الذى يرسل النكت يضج لها المجلس ، أو الساخر الذى لا يبالى أن يتصيد المفارقة ويعبث بالجلاس ، فان لم يجد من يسخر منه ، لم يجد حرجا فى أن يسخر من نفسه ، مادام الهدف هو التعبير عن لامبالاته بأى شىء . ان الظريف غير هذا كله ، انه على العكس ، شخص دمث الأخلاق، نظيف الظاهر والباطن ، منضبط السلوك ، مدرب على المشاركة فى المجالس العامة ، يراقب لسانه ، وحركته ، وثيابه ، وطعامه ، ويجرى فى كل هذا على

سنن أهل الأدب والكياسة . « الوشاء » فى « الموشى » يريد أن يجعل من الظرف بهذا المعنى سلوكا اسلاميا، ولا حرج فى ذلك ، ويريد أن يترك فى فكرنا انطباعا ، بان القرآن والسنة ، قد رسما أمام المسلم طريق الظرف والأدب ، فقد خاطب الله سبحانه ، نبيه بقوله : « ادفع بالتى هى أحسن » و « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » و « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس » ، وعن جرير بن عبد الله البجلى قال : « ما حجبنى رسول الله منذ أسلمت ، ولا رآنى الا تبسم فى وجهى » وروى عن النبى أيضا أنه قال : « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه ، والخلق » . وروى مجاهد عن معاذ قوله عليه السلام : « ان المسلمين اذا التقيا ، فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ، تحاتت ذنوبهما ، كما يتحات ورق الشجر » . تحاتت معناها : تآكلت . هذه بداية أخلاقية اسلامية واجبة ، هى الشعار المميز للحضارة

العربية فى عهد ازدهارها وهى المركز الذى يشع على جميع أنشطة العقل العربى ، وابداعاته ، حتى وان بدا منه أحيانا غير ذلك ، أو عكس ذلك . ولهـذا نجد الوشاء ، فى أعقاب هذه البداية القرآنية النبوية يعقد بابا عن سنن الظرف ، يقول فى مطلعه : « اعلم أن عماد الظرف عند الظرفاء ، وأهـل المعرفة والأدباء ، حفظ الجوار ، والوفاء بالذمار ، والأنفة من العار ، وطلب السلامة من أوزار . ولن يكون الظريف ظريفا حتى تجتمع فيه خصال أربع : الفصاحة ، والبلاغة ، والعفة ، والنزاهة » . ويؤكد الوشاء على صفة العفة ، ويورد فيها أشـعارا كثيرة ، وبهذا يحرم المـاجن والمتماجن والمهذار من صفة الظرف ، ويسميهم باسـماء آخر ، ثم ينتقل الوشاء من الصفات الشـعورية الى الصفات الظـاهرة ، فالظرفاء من زيهم الوقـار والخشـوع ، والسكون . وليس هـذا الوقار مانعا من أن يعرفوا الهوى ، وعذاب الحب العنيف ، انه من صفاتهم أيضا ، وهنا يذكر بعض مشاهير المحبين الأتقياء ، مثل عبد الله بن عبد الرحمن ، الذى كان يعرف بالقس ، لزهده وعبادته ،

وقد هام بسلامة المغنية ، وأبى عبد الله الواسطى ، وله شعر ينم على اجتماع الهوى والعفــة فى وجدانـــه ، وحرصه على ألا يؤدى به الحب الى ما يندم عليـــه ، ويحمله أوزارا :

كم قد ظفرت بمن أهـــوى ، فيمنعنى
منه الحياء ، وخوف الله ، والحـــذر

وكم خلوت بمن أهـــوى ، فيقنعنى
منه الفكاهة ، والتحـــديث ، والنظر

أهوى الملاح ، وأهوى أن أجالسهم
وليس لى فى حـــرام منهـــم وطـــر

كذلك الحب ، لا اتيـــان معصـــية
لا خـــير فى لذة من بعـــدها ســـقر

فالحب مما يستدل به على كمال أدب الظرفاء ، وليس العكس ، أى أنه طريق الى تنمية الشخصية ، تهذيب المشاعر ، وترقية السلوك العام مع الآخرين . كما يقول صاحب « الموشى » .. الهوى « أول باب

تفتق به الأذهان ، وينفسح بن الجنان وله سـورة فى القلب ، يحيا بها اللب ، وقد يشجع الجبان ، ويسخى البخيل ، ويطلق لسان العى ، ويقوى حزم العاجـز ، ليأنس به الجليس » . « قيل لبعض البصريين : ان ابنك قد عشق . فقال : وما بأس به ، انه اذا عشق نظف ، وظرف ، ولطف » . فتأمل هذا المعنى الشريف للعشق وتأمل المهانة التى لحقت بهذه الكلمة فى عصرنا .

ثم يغادر الوشاء البناء الشخصى للظريف ، الى سـلوكه الاجتمـاعى وعلاقته بالآخرين ، فهو ــ أى الظريف ــ لا يداخل أحدا فى حديثه ، ولا يتطلع على قارىء فى كتابه ، ولا يتسمع على مسر ، ولا يسأل عما أخفى عنه . فى المجالس ، لايشبك أصابعه ، ولايتجشأ ، ولا يتمطى ، ولا يمد رجليه ولا يلمس أنفه ، ولا يأكل على قارعة الطريق ، ولا يصاحب الوضعاء ، ولا يشاتم ولا يغتاب ولا يفسد بين خليلين . وينتقل من السـلوك الى المظهر ، فللظرفاء زيهم ، اذ ينبغى الابتعـاد عن الألوان الشنيعـة المتنـافرة ، والشفافـة الكاشـفة لمـا تحتها ، وكذلك لهم طريقتهم فى التزين بالخواتم ،

وليس من الظرف التختم بالذهب ، فانما هو من لبس النساء . والصبيان ، والاماء . وهكذا يمضى الوشاء ليضع قواعد وآدابا للمائدة ، بدءا بالاستعداد لتناول الطعام ، ثم طريقة تناوله ، ثم ما ينبغى التعفف عن أكله ، وأخيرا ، كيف ندير جلسة هادئة بعد الطعام ؟ . ويمضى عن ذلك الى آداب الاهداء ، ماذا نهدى ، وما هى المناسبات التى يليق أن نقدم فيها الهدايا ؟ وهكذا يتشعب الحديث ليشمل السلوك الانسانى ، مظهرا ومخبرا ، فرديا ، واجتماعيا . وبذلك يفتح كتاب « الموشى فى الظرف والظرفاء » الطريق الى دراسة اجتماعية وافية ، توضح جانبا رائعا ، يصح أن نفخر به ، من جوانب حضارتنا العربية ، بل يمكن أن يكون السلوك الفردى والاجتماعى فى هذا الكتاب مجالا لدراسة سيكولوجية للنفس العربية ، فى تلك العصور الماضية ، فضلا عن تصحيح فكرتنا عن الظرف ، ومعرفتنا بالتقاليد الراسخة للسلوك عند الطبقة الوسطى ، فى زمن ازدهار الحضارة ، بل الاصالة العربية .

الفتوحـات المكيـة

١٧

« الفتوحات المكية » الذى ألفه الشيخ أبو بكر محمد بن على ، المعروف بمحيى الدين بن عربى ، هو الكتاب القديم الذى نتأمله اليوم ، لنقرأ جانبا منه فى ضوء مقترح جديد ، نهدف به الى تعميق فكرتنا الى تراثنا العربى ، وتلوين علاقتنا به ، وبث الحياة فى تلك العلاقة ، من خلال انتقاء العناصر الصالحة للاستمرار .

ابن عربى ، متصـوف ، فيلسوف أندلسى ، عاش ما بين القرنين السادس والسابع من الهجرة النبوية ، كما عاش حياته قسـمة بين الأندلس ، والمشرق . فقد ولد فى مرسية ، ورحل عنها حين بدأ طريق العلم ، الى لشبونة، ثم اشبيلية ، حيث يزدهر التصـوف ويعيش أقطابه ومريدوه . ثم كانت الرحـلة الى المشرق فى منتصف عمره تقريبا ، بدأت بمصر فلم يجد فيها قبولا ، فغادرها الى بيت المقدس ، ومكة ، وبغداد ، وقد حج واعتمر ،

ثم استقر فى دمشق الشطر الأخير من عمره ، وفى دمشق عاش وألف أهم أعماله ، ودفن فى جبل قاسيون .
للشيخ محيى الدين بن عربى كتب كثيرة يقع الخطأ فى عددها ، يرى بعض فلاسفتنا المحدثين أن كتاب « فصوص الحكم » أهم ، بل أعظم مؤلفات ابن عربى قدرا من ناحية النضج الفكرى والمنهجى ، والدلالة على مذهبه فى التصوف . ومع هذا فاننا نختار له « الفتوحات المكية » لتنوع مادته ، ولأنه يمنحنا القضية الحاضرة التى لا نجدها فى الكتب الأخرى . وقد وصف كتاب الفتوحات المكية بأنه دائرة معارف اسلامية لا نظير لها فى المكتبة العربية ، وأنه بحر لا ساحل له ، وأنه من الكتب القليلة ـ على مستوى التراث الاسلامى كله ـ التى تركت أثرا واضحا فى الثقافات الغربية على تنوعها ، وفى أهم فلاسفة النهضة الأوروبية ، وفى أصحاب الديانات الأخرى .. على السواء . يقول ابن عربى ، موضحا المناسبة والجو النفسى والروحى الذى انبعثت فيه فكرة « الفتوحات المكية » : « كنت نويت الحج والعمرة ، فلما وصلت أم القرى ، أقام

الله سبحانه وتعالى فى خاطرى أن أعرف الولى بفنون من المعارف ، وكان الأغلب منهـا ما فتح الله سبحانه وتعالى على به ، عند طواف فى بيته المكرم » . من هنا جاءت التسمية « الفتوحـات » فابن عربى صـوفى اشراقى يرى أن الطريق الى المعرفة يسلك بالرياضـة الروحية ، واستلهام الذات الالهيـة ، التى تفيض على الأنقياء العارفين من علمها الذى لا تحيط به عقول البشر ولا قلوبهم . من هذا الباعث الداخلى ، القـائم على رصد ما يخطر فى القلب ، وما يمر بالخيال من سوانح الفكر والصـور ، ومن الهدف العام وهو تقديم فنون من المعارف جاءت مـادة الكتاب بعيدة عن أى تناسق فكرى الى منهج علمى ، وتخطيط مسبق ، يربط بين المسـائل ، ويتدرج فى طرحها ليصـل الى نتيجـة محددة . انها فيض متدفق من المعلومات ، الدينيـة ، والفلسفية ، والطبية ، والفلكية ، والأدبية ، والصوفية ، تسيل ، وتمتزج ، وتتوالد على السجية ، ولا يحول دون تدفقها كونها فى موقعها من سـياق فكرة شمولية يتوخاها ابن عربى ، أو فى غير موقعها . يقول العارف

بالله الشعرانى ، عن « الفتوحات » : ما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق ، من كتاب الفتوحات المكية ـ لا سيما ما تكلم فيه عن أسرار الشريعة ، وبيان منازع المجتهدين ، التى استنبطوا منها أقوالهم : فان نظر فيه مجتهد فى الشريعة ازداد علما الى علمة ، واطلع على أسرار وجوه الاستنباط ، وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، وان نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو شارح للأحاديث النبوية فكذلك أو متكلم فكذلك ، أو لغوى ، أو محدث ، أو مقرىء ، أو معبر للمنامات ، أوعالم للطبيعة وصنعة الطب ، أو عالم بالهندسة ، أو نحوى ، أو منطقى ، أو صوفى ، أو عالم بعلم حضرات الاسماء الالهية ، أو عالم بعلم الحروف ... فكذلك . فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم وغيرها ، علوما لم تخطر لهم قط على بال . انتهى كلام الشعرانى مع شيء من الاختصار ، أوردناه على طوله لنرى مدى التنوع فى مادة « الفتوحات المكية » ، والعجز عن تنسيق المادة الغزيرة كذلك ، ولنقول من بعد ان الكتاب يدل على أكثر مما أشار

الشـــعرانى ، فهو من المصادر الوافية التى تعطى فكرة واضحـــة عن التصـــوف الاســـلامى ، ومنـــابع تأثره بالفلسفات المختلفة ، وهو أيضـــا أهم مصدر للمعرفة بحياة مؤلفـــه ابن عربى ، وأطوار خبرته أو تجربتـــه الصـــوفية ، وهو بعد ذلك يسلمنا لبداية القضـــية الحاضرة ، التى نطرحها من خلال النظر فى هذا الكتاب، وقبل أن نفعل ، سأذكر المناسبة التى سمعت فيها اسم ابن عربى ، لأول مرة ، والمفارقة الطريفة أن ذلك لم يكن فى مجال دراسة الفلسفة الاسلامية ، أو التصوف • بل كان فى درس الأدب المقارن ، وكان أستاذنا الدكتور محمد غنيمى هلال ــ رحمه الله رحمة واسعة ــ يتكلم عن قضية التأثير المتبادل بين الآداب العالميـــة ، وكان مما عرضه تأثر الشاعر الايطالى « دانتى » فى الكوميديا الالهية ــ وهى مفخرة الأدب الايطـــالى واحدى دعاماته المؤسسة ــ تأثر هـــذا الشاعر بمصادر اسلامية ، فى وصفه للرحلة بين الجنة والنار والمطهر • وكان الظن أنه سار وراء أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران • ثم يوافق غنيمى هلال على هـــذا الرأى ، فليست الرحلة

الى العالم الآخر بعيدة عن الخيال أو الشعور الانسانى، ويمكن أن ترد الى عقول كثيرة دون أن يدل هـذا على سبق أحدها ، أو علمه وتأثره بالسابق • فالقضية مظنونة ، ولا يصح اصـدار حكم علمى على الظن •• اذ لم يثبت بطريق القطع أن دانتى كان يعرف العربية ، أو أن الغفران ترجمت الى لغـة مما يعرف الشـاعر الايطالى ابان حياته • ان الأثر الاسلامى فى الكوميديا الالهية لاشـك فيه ، ولكن : كيف يمكن اكتشـاف المنبع ؟ هنا تصدى باحث أسبانى هو أسين بلاسيوس ، وظهر اسم ابن عربى أمامنا ، نحن الطـلاب — لأول مرة وعرفنا أن له كتابا اسمه « الفتوحات المكيـة » ، وعرفنا أن هـذا الكتاب بالذات قد أثر فى الكوميديا الالهيـة ، وأن التأثير مقطوع به لأنـه لا يقف عند الموضوع العام ، أو الخطوط العريضة ، وانما يتجاوزها الى التفاصيل الدقيقة ، والصـور الشعرية والفنيـة المبتكرة ، ونحن نعرف أن الصورة الشعرية من أخص ما يميز فن الشاعر ، وأنه شـاعر بمقدار ما يبتكر من صور جديدة ، حية ، عميقة ، لا يشترك فيها مع سواه•

بمعنى أن الصور خاصة بصاحبها وانتقالها الى غيره لا يعنى غير أمر واحد محدد ، هو التأثر !! وهنا أشار أستاذنا غنيمى هلال — طيب الله ثراه — الى صورتين بديعتين ، ابتكرهما خيال ابن عربى ، أو استمدهما من القصص حول الاسراء والمعراج ، وأخذهما عنه دانتى : ووضعهما فى كتابه ، صورة الكلب ذى الرؤوس الثلاثة، الذى يحرس باب جهنم ، ويحول دون المعذبين ومحاولة الفرار من الجحيم ، وصورة الذيك الذهبى الذى يسبح الله بسبعين ألف لسان اذا ما اشرقت الشمس ، فاذا تم شروقها صمت ، وسكن عن الحركة ، حتى يقترب شروق اليوم التالى . لقد كانت هاتان الصورتان خير تقديم لابن عربى كشاعر ، ونحن نعرف أن له ديوان شعر « ترجمان الأشواق » ، ولكن ما أقصده من شاعريته يتجاوز ديوانه المنظوم ، الى النظر فى كل ما أبدعه خياله من شعر ونثر فى ضوء واحد ، أنه شعر . ان القرابة قوية بين التصوف والشعر ، وابن عربى

كما تدل اشارتـه فى « الفتوحات المكيـة » يقرر أنه يتسمع على أحاسيسه الداخليـة ووجدانه واشراقات روحه ، أكثر مما يفكر وفق منطق مرتب ، انه يخضع للعاطفة ، والخيال ، ويترك هذا الخيال يتجسد فى ضوء رسائله مع تيار العقل الباطن ، يهدف منها الى الحصول على التوازن الشعورى ، وهنا ـ مرة آخرى ـ يلتقى الشاعر بالصـوفى فى أن التعبير الفنى يتفجر فى صور وحركات تصـل بالنفس الى شاطىء الاعتدال ، وأنهما ينظمان وتتحرك نفساهما استجابة لموسيقى داخليـة تهز أعماقهما ، وتشعرهما بنوع من النشوة ، هى أقرب ما تكون من الغيبوبة ، حتى ليزعم أحدهما أو كلاهما ، أنه سمع ما يقول من شعر فى منامه ، أو أنه فى غير وعى كامل ، وحضور عقلى قاصد . ان اعتبار « الفتوحات المكية » نوعا من الشـعر ليس فيه تجـاوز أو انكار لعناصر الشعر ، وما ينبغى أن يتحقق فيه ، والشرائط كلها متوفرة فيه . وهـذا التصور للكتـاب ، يغنى

نظرتنا الى آثارنا الفكرية والفنية ، ويصرف بعض أذهاننا عن هدف يسيء كثيرا الى الباحثين والدارسين من القدماء والمحدثين ، حين يركزون اهتمامهم على فكرة الصواب والخطأ ، والايمان والكفر ، فى حين أن اعتبار هذه الآثار شعرا أو ضربا من الشعر يجعلنا أقرب الى فهم مجازاتها ، والتسامح معها ، دون أن نفرط فى حق دبننا علينا .

رسالة الحيوان والانسان

١٨

هذه حكاية خرافية ، وضعها « اخوان الصفاء » فى القرن الرابع الهجرى ، ليشرحوا من خلالها جانبا من فلسفتهم الأخلاقيــة ، وتصــوزهم للعالم . عنوان الحكاية القديمة ، التى جاءت فى شكل رسالة : « رسالة الحيوان والانسان » ، وموضوعها تأذى الحيوان من تعدى الانسان ، ومن ثم شكواه الى ملك الجــان ، الذى تولى منصــب القاضى بين الطرفين ، وأصــدر حكمه فى النهاية . هذه الحكاية الطريفة استحدثت فى الخرافة على لسان الحيوان أمرين لم يكونا معروفين قبلها ، وقد عهد فى حكايات الحيوان أن تكون مجهولة المؤلف ، حتى خرافات ايسوب ، الاغريقية ، فانه ليس مؤلفا لها ، وانما جمعها ، أما رســالة الحيوان فانهــا تنتمى الى اخوان الصفا ، وهم معروفون باســمائهم ولكنهم أرادوا ــ فى زمــانهم ــ لأمر أو لآخر ــ أن

يتواروا خلف هـذه التسمية الجماعية . الأمر الثاني أنها ـ الى اليوم ـ تعتبر أعلى مستوى في التركيب الفني لهذا النوع من الحكايات ، ليس بما تحقق لها من حس ملحمي ، يرعى عناصر البطولة ، ويقوم على الصراع وتعارض الارادات وحسب ، وانما لأنها مضت في حبكتها عبر تخطيط متقن ، واختبار دقيق للشخصيات المشاركة في تنمية الحادثة ، من الحيوان أو من البشر على السواء ، ولأسلوبها الملون ، ينتقل ما بين الوصف والتحليل ، والحوار ، بمهارة لا تترك لنفس القارىء فرصة يشعر فيها بالملل ، ثم لعمق الفكرة ودلالاتها الجانبية ، من الناحيتين الفطرية، والاجتماعية . وهـذه الجوانب جميعا تجعل من حكاية تداعي الحيوان على الانسان أمام محكمة الجان ، عملا أدبيا تفخر به ثقافة القرن الرابع ، بل تفخر به الثقافة العربية في كل العصور .

تبدأ الحكاية بمقدمة مختصرة عن نشأة الحياة على الأرض ، وتطورها ، كان الحيوان بأنواعه الأكثر

عددا ، والأقوى سطوة ، أما أولاد آدم فكانوا قليلين خائفين ، يأوون فى رؤوس الجبال والتلال ، متحصنين بها فى المغارات والكهوف ، يأكلون من ثمر الأشجار ، ويستترون بأوراق الشجر • ثم كثروا ، وبنوا القرى ، والمدن ، وبدأوا يطاردون أنواع الحيوان ، فخضع بعضها وذل وقبل أن يسخر فى حاجة الانسان ، ونفر بعضها الآخر الى ركن بعيد ، ونشبت بينه وبين الانسان عداوات متأصلة • وبقيت جزيرة نائية عند خط الاستواء ، فى وسط البحر الأخضر ، يقال لها بلا صاغون مجهولة من البشر ، خالية من نوعهم ، وبهذا ظلت خالصة للجن وأنواع الحيوان ، وكان عليها ملك من الجن يقال له بيوراسب الحكيم ، لقبه شاه مردان ، وكانت هذه الجزيرة وفيرة الخيرات • هذه اذا بيئة الحدث الملحمى ، وطبيعة الحياة فيها قبل بدء الصراع ، الذى يتحرك فجأة عقب حادث محتمل ، فقد طرحت الرياح العاصفة سفينة على شاطىء تلك الجزيرة التى لم تعرف البشر ، وكان على السفينة سبعون رجلا ، يصفهم بانهم من التجار والصناع وأهل العلم ، وسائر أبناء

الناس ، ما لبثوا أن انتشروا فى أرجاء الجزيرة بحثا عن مطالب الحياة ، وكان من الطبيعى أن يروا ما بالجزيرة من أنواع الحيوان ، وكان من المتوقع أن يتطلعوا الى استخدام هذه الأنواع فى تعمير الجزيرة ، التى وجدوا أنفسهم معزولين بها ، قياسا على ما يستخدمونه من حيوان فى أوطانهم من قبل • ولكن حيوانات الجزيرة ، التى نشأت على الحرية ، ولم تجرب الخضوع للانسان ، ترفض دعواه فى السيادة عليها • وحين يتدخل ملك الجن ، بيوراسب الحكيم ، أو شاه مردان ، ويطلب من الانسان الكف عن مطاردة الحيوان ، وادعاء التفوق عليه ، يتصدى واحد من البشر ليردد آيات القرآن ، تؤكد كرامة الانسان ، وانعام الله عليه بنعم شتى ، منها خضوع الحيوان له ، وتسخيره فى خدمته : « والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون » • وآيات أخرى كثيرة ، تستفز زعيم البهائم ، اذ يرى أن الانسان يستنتج من هذه الآيات ما يخدم طمعه وعنفه ، ولا تدل عليه الآيات بالضرورة ،

فليس فى الآيات ما يؤيد الزعم بأن البشر أرباب وبأن الحيوان عبيد ، انما هى آيات تدل على انعام الله عليهم واحسانه اليهم ، فقال : « سخرها لكم كما سخر الشمس والقمر والرياح والسحاب ، فهل الشمس أو القمر أو السحاب مما يخضع للانسان بالعبودية ؟ تطول جلسة الدعوى والنقيض أمام ملك الجان ، والانسان يقدم الحجة بعد الحجة ، بدءاً بالعقل ، واستواء القامة ، والحيوان يدحض ، ويقدم البديل ، فهو الأقدم وجودا ، ولا فضل للانسان فى استواء قامته ، فكل نوع خلق على الهيئة التى تضمن له معيشته، ثم يقول زعيم البهائم لمحاوره من بنى البشر : « أما علمت أنك اذا عبت المصنوع ، فقد عبت الصانع » ؟ هنا أفحم الانسان ، وحدث ارتباك عام ، وتوالى تراشق الاتهام ، وبدأ الانسان يستخدم الحيلة فى الايقاع بين أنواع الحيوان التى قبلت معاشرة الانسان فى القرى والمنازل، وتلك التى نفرت وتوحشت . وعلى الأثر خلا الملك الى وزيره بيدار ، الذى يقترح دعوة مجلس المملكة الى الانعقاد ، وهو مكون من قضاة الجن ، وفقهائها ،

وحكمائها ، ليستنير الملك فأفكارهم ، ويتضح له وجه الصـــواب • واذ تميل الجن الى العطف على الحيوان ، والرغبة فى حمايته من الانسان ، الذى يحمل أفكارا غير منصفة عن الجن أيضا ، فان الحكماء ــ حكماء الجن ــ يرون ضرورة الحياد بين المتخاصمين ، والاحتكام الى العقل ، بعد عقد جلسة يتبارى فيها الفريقان ، ويكشف كل منهما عن أسباب موقفه فى دعواه •

المحاكمة فى ذاتها ستكون استمرارا لمـــا سـبق أن تراشقه الفريقان من الحجج ، الدينية ، والعقلية ، والحضارية ، وما تبادلاه من اتهام بالعجز أو الانحراف عن الطبع الســوى • ان الاجراءات التمهيدية للمحاكمة هى الأمر المثير حقـــا ، وقد سيقت لأغراض تربويـــة وتعليمية ، جديرة بأن نقرأها فى ضوء الأهداف التربوية الحديثة ، وهــذه قضية حاضرة نضعها بين يدى أهل الاختصاص • لقد أشرنا الى المضمون التربوى فى هذه المحاكمـــة ، ولكنـــه ليس الأمر الوحيـــد ، ويستطيع الباحثون فى مجالات علم الاجتماع ، والعلوم السياسية، والمهتمون بالحضـــارة ــ بشكل عـــام ــ أن يجدوا

الكثير ، اذا ما رجعوا الى نص رسالة التداعى ، وقرأوه من زاويتهم الخاصة . لقد اختار اخوان الصفاء سبعين رجلا ليمثلوا البشرية فى دعواها بسيادة الأرض، وما عليها ، وقد جاء التمثيل شاملا لكل السلالات ، ففيهم العربى والرومى والهندى والحبشى ، وغيرهم . وفى اجتماعهم التمهيدى لاختيار المتحدثين أمام بيوراسب الحكيم ، تظهر كل آفات المجتمع البشرى . اذ يفكر البعض فى رشوة المحكمين ، وانتزاع فتوى منهم بحق الانسان فى تسخير الحيوان ، ويعول بعض آخر على وقوع خلاف بين القضاة ، أو بين الخصوم ، ويفكر بعض ثالث باصطناع شهود مدسوسين منحازين . فى حين أن طوائف الحيوان من البهائم ، والسباع ، والجوارح ، والحشرات ، والهوام ، راح كل فريق منها يعقد اجتماعا خاصا ، يختار فيه مندوبا واحدا يتكلم باسم الجماعة كلها . ومن الطريف الجدير بالملاحظة أن طائفة واحدة من الحيوان لم تختر ملكها ليتحدث باسمها ، كانت الطائفة تميل الى ترشيح الملك ، باعتباره الرمز ، كالأسد للسباع ، والنسر

للجوارح ، ولكن الملوك جميعا رشحوا واحدا من أتباعهم ، رأوا أنه أقرب الى ما تحتاجه مهمة مخاطبة الانسان ، ومقارعته بالحجة ، ولعلهم رأوا أيضا أنه لا يليق بالملك أن يكون مفاوضا ، فقد يحتاج المفاوض الى شيء من الخداع أو التهويل ، لا يليق بمنصب الملك . لقد احتكم الانسان أخيرا الى العقل ، وانتصر على طوائف الحيوان به ، وبحجة الشرع ، وحكم بيوراسب بان الانسان سيد على الحيوان ، لكنها ليست سيادة الطاغية ، بل الرفيق الشفيق ، فهذا قدر الله، ونظام الكون . كان الحكم متوقعا ، ومن ثم فان جوهر الابداع فى رسالة تداعى الحيوان على الانسان أمام محكمة الجان ليس فى خاتمتها ، بل فى تكوينها الشامل ، وهو عمل جديد ، حتى بعد ألف عام من ابداعه ، وانجاز فنى وفكرى يستحق الاهتمام ، فى وقتنا الحاضر ، لما يحمل من قيم حضارية قادرة على التوجيه ، وصالحة للتربية ، ومبهجة للنفس ، فى ذات الوقت .

الزهـــرة

١٩

تتسم عصــور القوة الحضارية بانفساح العقل فيها لكل نشاط ، وانفساح الصدر فيها ، أو تسامحه مع اختلاف السلوك ، وعمق الخبرة العملية يقوى بها اتجاه اتجاها آخر ، يكمل ويضيف ، ويفسر ، دون أن يناقض • ولم يكن الجــاحظ مثلا فريدا فى عنايتــه بالأدب ، وبعلمالحيوان ، وبرصد الظاهرات الاجتماعية، ولدينا مفكر آخر ، ينتمى الى القرن الثالث الهجرى ، هو محمد بن داود الظاهرى ، وهو فقيه أصــلا ، وابن فقيه مؤسس لهذا الاتجاه الفقهى ، ولكننا نعنى به اليوم بما أنه مؤلف كتاب « الزهرة » ، والزهرة كوكب عرفه العرب فى الجاهليــة وعبده بعضــهم ، والزهرة فينوس ، الهة الحب عند الاغريق ، ولم يكن ابن داود يجهل هــذه الحقيقة ، وقد عرفنا من خلالها موضوع الكتاب ، وقبل أن تتوقف عنده لن يفوتنا أن نشير الى

تنوع نشـاط الفقهاء ، واتسـاع آفـاق تفكيرهم ، وعنايتهم بالانسان فى كل أحواله وأطوار نفسه ، واتجاه مشاعره ، فهذا كله واضح فى التفات هـذا الفقيه الى موضوع الحب ، بنوعيـة : الحب الالهى ، والحب الانسانى ، يجعل منه مجالا للتأمل والتحليل ، والتفسير، ويرصـد فى سبيل ذلك أقوالا لا تحصى للحـكماء ، والعشاق ، والشعراء . ولا يفوتنا كذلك أن نوجـه الأفكار الى أن لمثل هـذه الدراسات التى تتصـل بالمشاعر والانفعالات علاقة قوية بالنفس والأعصـاب ، ومن ثم بعـلم النفس ، الذى يمـكن أن يجد فيهـا مجالات للبحث فى أسس جديدة لتصـور الفكر العربى التراثى ، الذى نظلمـه كثيرا حين نفرض عليـه أطرا جامدة ، أوحت بها عصور تقليدية ناضبة الخيـال ، سطحية التفكير . ثم نعود الى كتاب « الزهرة » لنقرأ من بين عباراته المضيئة قوله عن علاقة الحب وما ينبغى أن تحاط به من خلق شريف ، ومشاعر نقية ، حرصا على العلاقة ودوامهـا : « ولو لم تكن عفة المتحـابين عن الأدناس ، وتحاميهما ما ينكر فى عرف كافة الناس ،

محرما فى الشرائع ، ولا مستقبحا فى الطبائع ، لكان الواجب على كل منهما تركه ، ابقاء وده عند صاحبه وابقاء على ود صاحبه عنده » . هـذا هو المدخـل الأخلاقى للحب فى تصور ابن داود ، وكما نرى فانه ارتفع بهذه العاطفة الانسانية عن كل الأحاسيس الطامعة الهابطة ، وفى نفس الوقت لم يتصـورها فى مستوى الخياليـة ، التى لا تصح الا فى حـالات نادرة ، انه يخاطب الطبع البشرى ، ويريد أن يرقى به الى مستوى احترام العقل ، واحترام السلوك وضبط العاطفة بهذين الحدين ، اللذين لا غنى عنهما ، لتكامل الشخصـية الانسـانية .

لقد لاحظ بعض المهتمين بالثقافـة العربيـة ، من الأوربيين ، أن قصص الحب وأخباره كثيرة فى الأدب العربى القديم ، وأنه لا يختلف عن غيره من الآداب العالمية فى ذلك ، ويلحق الشعر بالقصص والأخبـار أيضا ، فالغزل ركن أساسى يأخذ مساحة واضحة فى كثير من دواوين الشـعراء ، حتى أولئـك الذين لم

يشتهروا فى التاريخ على أنهم من المحبين العذريين ، أو غير العذريين . على أن هـذا البعض المشار اليه يسجل ملاحظـة على المستوى الفـكرى والنظرى ، المتصل بقضية الحب ، انه بعبارة محددة ، وكما يزعم هـذا البعض ، ليس فى غزارة القصص والاخبـار والأشعار ، وان كان يعترف بوجود عدد من الدراسات لا بأس به ، اهتمت بالجانب النظرى للعشق ، سـواء كان عشقا الهيا ، أو عشقا بشريا أو أرضيا ــ على حد تعبيرهم ، ثم يقول : « ولمـا كان الدافـع الدينى له الغلبة عادة على كافة الدوافع الأخرى ، لتأليف الكتب ، ونشرها فى العالم الاسلامى ، فان هـذا القول يصدق أيضا فيما يتعلق بالبحث فى قضية الحب ، اذ نجد عدد الأعمال التى تبحث فى نظرية العشق الالهى ، يفوق بكثير عدد تلك التى تناقش العشق الأرضى أو البشرى . هذا فضـلا عن أن الكتابات التى تعالج العشق الأرضى لم تكن تخلو من اعتبارات دينية وأحيانا صوفية » . ليس هذا القول بجديد يرشـدنا اليه المستشرقون وأمثالهم ، فنحن نعرف أن حضارتنا العربية ذات صبغة اسلامية ،

وأن المنزع الأخلاقى هو المحرك الرئيسى لها ، كما أن الاشارة الى ندرة البحث النظرى ، والاهتمـام بالقيم المجردة للحوادث الجارية ليست بالتهمة الجديدة أيضا ، لكنها تهمة ضخمت عن جهل بطبيعة العقلية العربيـة ، أو عن عمد يروم توتير النفس العربيـة ، وأشـعارها بالنقص ، وكأن فطرتهـا أن تكون عاجـزة عن النظرة الشاملة الى الأمور الجزئية ، عاجزة عن استخلاص معنى مجرد من شهادات الحواس . وليس هـذا بصحيح . فالمواهب الانسانيـة متكافئـة ، والأمر برمته سياق حضارى ، ودورات نهضة وانحطاط ، فللحضـارات أعمار كالبشر ، والكون والفساد قانون شـامل لكل ما يخضـع للقوانين الطبيعية . نعود الى ابن داود ، وكتابه « الزهرة » ففى هـذا الكتاب نجد الرد على الزعم السابق ، لقد اكتشف فى هذا الكتاب ، أو كشف عن اطار للحب ، هو نظرية فى الحب ، أو يوشـك أن يكون ، يجمع البواعث الى المظاهر أو العلامات ، الى النتائج ، فى حالى الفوز أو الاخفاق ، لقد اعتمد على مـادة جاهزة ، هـذا صحيح ، فكل ما فى كتابـه من

أشعار ونوادر وأخبار ، بل ما فيه من اشارات نظرية وعلمية ، الى أفلاطون ، أو الى ما سبق عصر أفلاطون من أساطير ، أو الى أبراج الكواكب وتأثيرها على انفعالات الانسان ، كل ذلك ، أو أكثره موجود قبله ، ومع هذا فان الكتاب يعتبر انجازا نظريا جديرا بالتقدير والتقييم . ان ابن داود يوجه كتابه لأهل الأدب والظرف ، ومن ثم يرسم معالم عاطفة الحب فى صورتها الاجتماعية الراقية القائمة على البناء الثقافى والروحى الأصيل ، فالحب عنده تعبير عن حالة عقلية ، ذات طابع تأملى ، أو ينبغى أن تكون . انه يهدى قارئه الى كيفية الارتقاء بعاطفته ، والبلوغ بها الى مستوى روحى رفيع ، لا تشوبه شائبة من ضعف خلقى ، أو طمع حسى ، أو نكوص يزرى بأهل العزم ، فيكاد أن يضع تقاليد وأصولا للحب ، لولا أنه يجد عليها دليلا من الشعر العربى فى مختلف عصوره لقلنا انه لا يحرص على تحليل الواقع ، ورسم ملامحه ، قدر حرصه على استثمار هذا الواقع فى رياضة النفس ، وترقية

الذوق ، وتقويم السلوك ، واجتناء متعة الصبر والتأمل والكتمان والاخلاص للفكرة الواحدة .

لقد حدد ابن داود بداية لشبوب العاطفة ، فيما يتصوره ، وهى النظرة ، ولكنها مجرد سبب قريب ، فليست كل نظرة تنتهى الى عاطفة مشتركة . لابد اذا من اكتشاف سبب أبعد غورا فى النفس ، أو فى الوراثة ، أو فى القدر . ولقد أشار الى هذه القوى الثلاث ، ووضعها فى سياق واحد ، أو جعلها على اتفاق فى اثمار عاطفة الحب ، ممتطية للنظرة كأداة ليس غير . وهنا يذكر حديثا يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها اختلف » ثم لا يجد تناقضا فى ذكر أبيات لشاعر جاهلى تتضمن من معنى الحديث . قال طرفة بن العبد :

تعارف أرواح الرجال اذا التقوا
فمنهم عدو يتقى وخليل

ثم يشير الى أسطورة اغريقية عن أصل الانسان

بانه كان مدور الشـــكل ، يتضمن عنصرى الذكورة والأنوثة ، ثم غضبت عليه الآلهـــة فقسمته الى قسمين : ذكر وأنثى ، ومن هنا يكون احتيـــاج كل نصف الى استكمال وجوده القديم ، بنصفه الآخر ، ثم لا يجد حرجا — مرة أخرى — فى أن يروى أبياتا لجميل بثينة، يقول مطلعها ما يتوافق والفكرة الاسطورية الاغريقية اذ يقول جميل عن بثينة :

تعلق روحى روحهـــا قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا ، وفى المهد

لقد أورد ابن داود هذه الأمثلة ، ليضـــع أمامنا خريطة الفكر والفن البشرى عبر العصور والحضارات، ويرينا من خلالها كيف أن قوانين النفس واحدة ، وأن قوانين الرقى بها واحـــدة أيضا ، وهـــذا جهد نبيل ، فضـــلا عن أنه يدحض الزعم بأن قدماءنا لا صبر لهم على البحث النظرى ، وأنهم مستغرقون فى فتات الواقع، هون عن الرؤية الشاملة ، ان كتاب « الزهرة » واحد من الردود الوافية ، فى هذه القضية الحاضرة .

كتـــاب رســـل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة

٢٠

بقدر ما أن عبـــارة « لا جديد تحت الشمس » صادقة فى اشارتها الضمنية ، الى أن الحركة قـــانون شامل ، وأن كل ما نراه جديدا له أشباه أو جذور فى الماضى ، وأن التاريخ يعيد نفسه ، بقدر ما توجب علينا أن نبحث عن الجديد فى القديم ، لتأكيد وحدة العقل الانسانى ، وثبات الأســباب الموضوعية لبنـــاء الحضارة . نمهد بهذه العبارة الموجزة ، لتقديم كتاب قديم ، مضى على تأليفه أكثر من ألف عام ، ومع هذا او قيل انه ألف منذ أعوام قلائل قد تتضـــاءل الى أدنى الممكن ، لتقبلته الأفكار فى جملته ، بصرف النظر عن لغته الرصينة المعبرة عن أسلوب الأدباء فى عصرهـــا ، وانحصار الأمثلة التى اعتمد المؤلف عليها فيما سبق عصره ، الى زمانه ، وهـــذا أمر بديهى . وما نراه لهذا الكتاب أعظم ما يوجه الى كتاب من تحية واكبار ،

أنه يبقى جديدا مهما تقادم الزمن ، صالحا لمخاطبة الآتى ، رغم انتمائه الى الماضى . وقد تحقق له هذا الفضل ، مع ندرة الموضوع ، وسلامة المنهج الذى اتبع فى طرحه . الكتاب ، عنوانه ، « كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة » ألفه : الحسين بن محمد ، المعروف بابن الفراء . وكما هو واضح فى عنوان الكتاب هو صفحة فى فن الدبلوماسية، وأصول التمثيل السياسى ، ولسنا نسرف كثيرا ، اذا قررنا أن عامة المثقفين ، وربما خاصتهم أيضا بل المتخصصين منهم فى هذا الفن والمشتغلين به لم يشعروا بضرورة أن يعرفوا شيئا عن جهود أجدادهم العرب فى حقل الدبلوماسية والأصول التى وضعوها كقواعد ، ينبغى أن يلتزمها من يتعرض لهذا النوع من الخدمة فى الدولة . لقد تأسست الدولة العربية الاسلامية الأولى ، فى عهد الرسول عليه السلام ، ومنذ تأسيسها وهى ترسل السفراء بالكتب ، والرسائل الشفهية ، الى الدول المجاورة ، للدعوة الى الدين تارة ، والى أمور الحرب والسلام ، ورعاية المصالح تارات . وقد تنوعت

السفارات واختلفت مهام الرسل ، بتنوع العلاقات بين الدولة العربية الاسـلامية ، والعالم من حولها ، واتساع دائرة التعامل ، سـواء كانت دمشق هى العاصـمة ، أو بغداد ، أو قرطبة ، أو القاهرة •

ابن الفراء فى كتابه : رسـل الملوك ومن يصلح للرسالة والسـفارة ، يلم بموضوعه الماما رائعـا ، فلا تكاد تند عنه شاردة • انه يحدد الصفات النفسـية والأخلاقية والعقلية ، لمن يقوم بنقل رسالة بين ملكين ، أى السفارة ، ويذكر الصفات الخلقية ، أو الجسميـة للسفير ، ولا يفوته أن ينص على أهميـة أن يكون هذا السفير من طبقة اجتماعية معينة ، وله تجارب حياتيـة تعينه على مهمتـه ، بل ينص على أنه ينبغى على من يختار للقيام بالسفارة بين رئيسى دولتين أن يكون قد تدرج فى مهمات معينة ، وأن يكون قد اختبر وثبتت كفاءته فى عمليـات أقل أهميـة وخطرا ، حتى يسمح له بتمثيل مليكه ، ودولته ، لدى ملك ، وبلاد أخرى •

يبدأ ابن الفراء ، بعد توطئه دينيـة قرآنيـة عن

أهمية الرسول ، وهو سفير السماء الى البشر ، يبدأ باقتباس يقول : « الكتاب يد ، والرسول لسان » ، وهـذا القول يعنى تفضيل ارسال سفير على ارسال خطاب ، أو كتاب ، فالكتـاب مقصور على معنـاه الذى تتضمنه كلماته ، لا يتعداه الى غيره ، أما الرسول، أى السفير ، أو المفاوض فان له أن يتصرف فى أنحـاء الحجة ، مادام حريصا على بلوغ الهدف الذى أوفـد لتحقيقه • ويذكر أيضا أن حامل الرسالة لا يعنيه هل حققت الرسالة هدفها أولا ، فكل همـه أن يوصلها • أما الرسول الذى يؤدى ما حمل عن رئيسه باللسان ، فانه يكون حريصـا على تحقيق الهدف ، لأنه يرفع منزلته عند مليكه ، ويجعله يتفـاءل به ، ويعهد اليـه بمهمات أخرى •

الصفات النفسية والعقلية هى أول ما ينبغى أن تتحقق فى الدبلوماسى القائم بالسفارة ، لأنه مدافع عن حقوق وطنه لدى الخصـوم أو الأعداء ، اذ لم تكن السفارات دائمة كما هو الحـال فى العصر الحديث ،

وانما كانت أشبه بالمهمة التى يندب للقيام بها شخص له استعداد خاص ، ومقدرة على الضبط ، والمحـاورة ، والمداورة ، لابد أن يكون السفير بليغا ، حصينا ، قادرا على التركيز ، وتذكر ما بدر منه ، وما استدرج اليه الطرف الآخر فى الحوار ، له قلب حديد ولسان سليط ، يعرف كيف ينقلب ، مع الحذر ، والتمييز ، يستطيع فى حركة واحدة أن يبرم ما نقض خصمه ، وينقض ما أبرمه ، يحيل الباطل فى شخص الحق ، والحق فى شخص الباطل ، متى وجد الحجة فى صالحه • هذه أهم القدرات الفطرية ، أو الاستعداد العقلى والنفسى الذى ينبغى أن يتوافر فى شخص السفير • أما ثقافته المكتسبة فلابد أن تكون متنوعة ، بحيث توسـع مداركـه ، وتعينه فى محـادثاته ، وتصحح تصـوراته ، فالعلم بالفرائض والسنن ، والأحـكام ، والسير ، من أول ما يطلب فى ثقافة السفير ، ثم العلم بالخراج والحساب والآداب ، والأجوبـة المسكتـة • ثم تأتى بعد ذلك الصفات الخلقيـة ، وأهمها أن يكون السـفير وسيما قسيما ، وسامة الرجال وقسامتهم ، لا تقتحمه العين ،

ولا يزدرى بالخبرة ، عفيفا جيد اللسان ، حسن البيان ، حاد البصر ، ذكى القلب ، يفهم الايماء ، ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق بلسان مرسله . فاذا ذكروه عرف ، واذا نظر اليه لم يحتقر ، ويجب أن يجمل بكل ما ينبغى أن يجمل به الوافد ، أى السفير ، فالعامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية والسداد .

وحين يصل الى الوضع الاجتماعى الأمثل للسفير ، والطبقة التى يختار منها السفراء ، يرى أنهم من أهل الشرف والبيوتات أليق ، لأن هؤلاء عادة من أصحاب الهمم العالية ، ويحبون أن يحافظوا على سمعة البيوت الشريفة التى ينتمون اليها ، وأن يضيفوا الى أمجاد آبائهم فى خدمة الدولة أمجادا جديدة تؤكد منزلتهم وتاريخهم العريق ، كما أن السفير الذى ينتمى الى بيت شريف حين يذكر اسمه لدى من أوفد اليهم فانه يعرف على الفور ، ولا يحتاجون الى السؤال عنه ، ولا ينسى الفراء أن ينتبه الى أهمية التوسعة على لسفير فى المال ، لتغطية رحلته ، ونفقاته ، وكل ما يحتمل أن يحتاج اليه ، ليس حفاظا على كرامة الدولة،

التي يمثلها وحسب ، وليس من أجل المهابة لدى الخصوم فقط ، وانما ، بالاضافة الى ما سبق ، من أجل ألا تتطلع نفسه الى ما يحتمل أن يؤثر على اخلاصه فى أداء مهمته ، أو يضعف ثقته فى نفسه أمام خصومه .

ان السفارة أو رياسة الوفود تحتاج الى استعداد خاص ، وقدرة على التوقع بحيث لا يفاجأ السفير بشيء، وهذا ما يعبر عنه بالمرونة ، والتلون ، فهو محتاج من الاقدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والركانة ، لأنه ليس على كل الطبقات يشتد ، ولا لكلها يلين . واحتياجه للحلم وكظم الغيظ أشد ، فقد يواجه عمدا ما يقصد به استفزازه للوقوع فى الخطأ ، أو الطيش ، وهذا منتهى الهزيمة له ، ولبلاده . ان السفير العظيم يدل على أن الذى اختاره أعظم منه ، ومن هنا وجب انتقاء السفراء من أهل الثقة والعلم والعقل والشرف ، ووجب تكليفهم بمهام صغيرة ، تتدرج نحو الأهم ويراقبون فى ألفاظهم ، وألحاظهم ، وحركاتهم ، حتى يوثق بهم .

فى كتاب « رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة » لابن الفراء ، يعلم السفير كيف يسجل ما يطلق عليه فى زماننا محضر جلسة المباحثات ، أو المفاوضات حتى لا يحرف عليه كلامه ، وحتى لا يتهم هو بتحريف ما سيقوم بنقله الى مليكه عقب عودته ، بل يشير الى أن الخصم ربما حاول الايقاع بالسفير الناجح ليحرم دولته ورئيسه من خدماته النافعة ، ويروى فى هذا السبيل ، ما حدث من ملك الروم ، اذ سفر اليه الشعبى عن عبد الملك بن مروان ، فأراد ملك الروم أن يكيد للشعبى ، فكتب فى الرد قصاصة مستقلة ، جاء فيها : « العجب لقوم فيهم مثل هذا ، كيف يملكون غيره ؟ » لم يفهم الشعبى مرمى هذه العبارة ، وطار عقله ، كما يقول المؤلف ، ولكن عبد الملك قال له : كتب ذلك لأنه حسدنى عليك ، وأراد أن يغرينى بقتلك . فقال الشعبى للخليفة : يا أمير المؤمنين ، انما كبرت فى عينيه لأنه لم يرك » .

وبعد .. فما أجدر هذا الكتاب أن يوضع تحت

الضوء فى علوم الدبلوماسية النظرية ، والعملية ، احياء لصفحة خالدة من تراثنا القديم ، وايمــاء الى أصــالة ثقافتنا . وتأكيدا على تنوعها ، واحاطتها ، وخبرتها ، وحتى تمتد جذور الواقع المعــاش ، الى تربة المــاضى الزاهر ، فينمو هذا الواقع مستفيدا بأطيب ما فى هــذه التربة المباركة يقدمه حياة نابضة ، للأجيال ... وللعالم أيضــا .

الصاهل والشاحج

٢١

الكتاب القديم الذى نعنى به فى هذه الكلمات ، رسالة طويلة ، كتبها أبو العلاء المعرى ، بعنوان : « الصاهل والشاحج » ، والصاهل الحصان ، والشاحج الحمار ، فالرسالة فى خطها الأساسى حوار بين حصان وحمار ، وقد ظهرت فيها حيوانات أخرى ، ظهر الجمل ، أو أبو أيوب ، والثعلب ، أو ثعالة ، والفاختة ، أى الحمامة ، وغير هؤلاء أيضا . وليست الصاهل والشاحج بالمحاولة الوحيدة لكاتبها فيلسوف المعرة ، بل ليست المحاولة الأكثر شهرة ، فى مجال القص والتخيل ، فهناك رسالة الغفران ، الذائعة الصيت ، صاحبة التأثير المترامى فى الأدب العربى ، قديمه وحديثه ، بل أثرت الغفران فى الأدب العالمى ، حتى زعموا أنها التى ألهمت الشاعر الايطالى دانتى موضوعه وبعض تفاصيله فى الكوميديا الالهية . ومع شهرة الغفران وكثرة ما قيل حولها ، فاتنا

تتجاوزها الى الأقل شهرة ، والأقل فى درجة الاتقــان الفنى أيضا ، لأن رســالة الصاهل والشاحج لم تحظ بالاهتمام الواجب ، وفضلا عن ذلك فانها تمنحنا مفتاحا مقبولا لقضية حاضرة •• ومؤثرة • لها خطرها الفنى والتعليمى والتربوى •

من أول مشاهد الحوار بين الصاهل والشاحج ، او بين الحصان والحمار ، نلاحظ كيف يحــاول الحمار آن يتقرب الى الحصــان ، وأن يظفر بنسب يقربه اليه ، كما نلاحظ استخفاف الحصــان به ، وسخريته منه ، ورفضه الاعتراف بأية درجــة من القرابة بين الخيــل والحمير • ويحاول الحمار آن يرقق قلب الحصــان بذكر ما يعانى من قسوة العمل ، وخشونة المعاملة من الآدميين ، ولكن الحصــان يظل على موقفه ، فيبــدد شكوى الحمار ، مظهرا أن الجبر قانون شامل ، لم يترك كائنا ، حتى الشمس والقمر ، وهما على سعيهما الدائب لا يشكوان ، حتى الانسان ، لم يسلم من سهام القدر ، أما الخيل فانها تعانى الخطر الداهم ، ويكفيها

أن تتلقى الصدمة الأولى فى الحرب ، وتتضرج أجسادها بالدماء ، وتسقط منها الضحايا ، فى حين تبقى الحمير فى مأمن بأثقالها بعيدا عن ميدان المعركة ، آمنة كأنها حمام الحرم . وهكذا تمضى الرسالة فى هذا الضرب من الجدل المنطقى ، الخبير بتركيب الحيوان ، وخصاله وقدرته ، وحين يشعر المعرى بأنه استنفد طاقته فى هذا الحوار الثنائى يدفع الى المسرح بكائن جديد ، ومع أن الضب هو الحكم بين الحيوانات كما جرى عرف الحكايات الخرافية ، فان الصاهل والشاحج لا يحتكمان اليه لبعد موقعه ، ويقترح الحصان أن يحتكما الى الحمامة ، فيعترض الحمار لشهرتها بالكذب ، فقيل فى الأمثال : « أكذب من فاختة » ، ومن ثم يقترح تحكيم الجمل ، ويطرى أخلاقه وصبره ، ولكن الحمامة ، وقد تقدم أنها كذوب ، تسمع الحوار الدائر بشأنها ، فتسرع الى الجمل ، مدعية كذبا أن الحمار كان يسخر منه ، ويرفض تحكيمه ، فيندفع الجمل ، لمهاجمة الحمار ، الذى يصبر على الأذى ، ويعلن الحقيقة ، ويوضح حتى يعتذر الجمل للحمار ، ويعلن استعداده لحمل رسائله

الفنية الى من يرغب فى وصولها اليهم ، لولا أنه ـ أى الجمل ـ ضعيف الذاكرة ، ولولا أنه لا يرغب فى حمل قصائد المديح ، لأنه يزدرى الشعراء المتكسبين بالشعر، الذين لم يترك سؤال الناس فى وجوههم قطرة من انحياء ، ولا طول الطمع فى نفوسهم أنفة من قبيح الأفعال . ويشعر المعرى ، مرة أخرى ، أن الحوار بين الجمل والحمار قد بلغ مداه ، فيدفع الى المسرح بالضبع تارة ، وبالثعلب تارة أخرى ، وفى كل هذه المواقف المتتابعة يعرض الكاتب لأمور متنوعة ، نحب أن نتوقف عندها قليلا .

لابد أن نعترف بأن رسالة الصاهل والشاحج ، لاترقى من ناحية التركيب الفنى ، وقوة الخيال الى مستوى رسالة الغفران ، ومع هذا فانها تنطوى على مشاهد وأوصاف ساخرة ، تكشف عن عمق الأسى ، وروح التسامح ، عند أبى العلاء ، ولكن هذه الرسالة تتفوق على الغفران فى أمر ليس سهلا ، انها بعيدة عن مناقشة قضايا الغيب ، كما أنها لم تهتم باصدار الأحكام

الأدبية والنقدية ، وهما الأمران اللذان شغلا أبـا العلاء في الغفران . أما البديل الذي تقدمه هـذه الرسالة ، فهو الكشف عن نوازع الحيوان ، وصفاته ، وأسرار سلوكه ، مقارنا بسلوك الانسان ، وأساليبه في معاملته ، مع ما يتضمن ذلك من ايراد الأمثال الشائعة ، وأبيات الشعر الذائعة ، التي تشير الى خصـلة من خصـال هذا الحيوان أو ذاك ، أو تعبر عن رأى الانسان فيه ، فضلا عن مشاهد المداعبة والفكاهة ، التي تقوم على اظهار مشاعر فضـائل من الحيوان تجـاه فضـائل أخرى منه . فها هو الحمار يرضى عن الثعلب ، ويعجب بلباقته ورفقه به ، فيتمنى أن يجازيه على تودده ، ولكن كيف يعبر عن ذلك ؟ يقول : « ولو قبلت كلاب المصير وصيتي لأوصـيت الك بأطيب بضعـة مني ، لا ، بل بالثلث من لحمي ، ولكنها جشعة حريصـة لا تقبـل وصاتي ، وأما الضبع فأكره أن تصيب مني شيئا ، لأنها حمقاء ، وكأني بها تزاحم الكلاب على أوصالي » .

هـذا اجمال شـديد التركيز لرسالة الصـاهل

والشاحج ، لأبي العلاء المعرى . فما القضية الحاضرة التي يمكن أن تثيرها في أفكارنا هـذه الرسالة ؟ ..

منذ كتب الروائي الانجليزى ولز رواية آلـة الزمن ، ومصطلح « الخيال العلمي » ، ورواية الخيال العلمي يشغلان حيزا من النقد . ورواية الخيال العلمي تسبق الزمن بتخيـل احتمـالات الغد ، على ضـوء مكتشفات الحـاضر ، ورواية آلة الزمن ، ذاتها تقوم على تخيل آلة مبتكرة ، يدخلها الانسان ، فيعيش في أحداث المـاضي ، أو أحداث المستقبل ، ويساهم فيها . في اطار هـذا التصـوير للرواية المستمدة مما سمي بالخيال العلمي قرأنا روايات عن غزو الأرض بمخلوقات من القمر أو غيره من الكواكب ، ورأينا انسانا يصغر جسده الى حجم الجرثومة ، ثم يدفع به آلى جسـم انسان آخر عن طريق الحقن ، فيقوم برحلة طريفة عبر الشرايين والأوردة وأعضاء الجسم المختلفة .

هـكذا تحدد المفهوم ، أو ما ينبغي أن يفهم من مصطلح الخيال العلمي . لكن أبـا العلاء ، في هـذه

الرسالة ، ينبهنا الى مفهوم آخر ، وهو امكان تقديم الحقائق العلمية ، من خلال الخيال العلمى . فى حدود رسالة الصاهل والشاحج ، قدم المعرى معلومات متنوعة ، ورائعة ، عن أجزاء الحيوان ، ونظام معيشته ، وانفعالاته ، وفصائله ، وعلاقته بالبشر ، الى آخر ما قدمنا . وجاء هذا كله مع نماذج مختلفة من الأمثال ، والكنى ، والألقاب ، والألغاز ، والمجازات ، والأشعار . فالمعرى استخدم الشكل المتخيل ، الذى قام أساسا على حوار بين حيوانات ، ليستعرض معرفته الواسعة بأسرار عالم الحيوان ، ويضعها أمامنا فى سياق مقبول ، فهو هنا يعلمنا ، دون أن يقول لنا ، أو يتركنا ندرك بقوة أنه يعلمنا .. لقد أوهمنا أنه يسلينا ، أو يداعبنا ، ثم جاءت الفائدة بعد ذلك . وأغلب الظن أن هذه الطريقة نافعة تربويا لتثقيف القارىء فى مرحلة من العمر ، وأنها لو وظفت بنجاح على يد كتاب لهم اقتدار فى ميدان المعرفة ، واتقان فى صناعة الأدب ، ودراية فى تشكيل المادة القصصية فاننا نستطيع أن نرقى بثقافة الناشئة أولا ، ونرفع من مستوى لغتهم التى

نعانى من ضعفها ثانيا ، وأن نربطهم بهذا الشكل التراثى الذى استخدمه قدماؤنا باقتدار ، ثالثا ، وهذه الغايات الثلاث جليلة القدر ، عظيمة الثمار ، فيما لو وضعت فى موضعها ، وأديت بأسلوب تربوى عربى مبين •

الشعر والشعراء

٢٢

الكتاب القديم الذى نتوقف عنده هذه المرة ، يصنف بين كتب الأدب والنقد ، وهذا واضح من عنوانه ، « الشعر والشعراء » لمؤلفه ، ابن قتيبه ، صاحب عيون الأخبار ، وأدب الكاتب ، وغيرهما من الدراسات الاسلامية ، والقرآنية . ومع هذا الميل الى الأدب والنقد ، فان القضية الحاضرة التى يثيرها كتاب الشعر والشعراء تمس مفهوم التجديد ، وعلاقة الحاضر بالماضى ، ومفهوم الاختيار الحضارى بوجه عام ، وهى قضية نعيشها بقوة ، فى كل الأنشطة التى نمارس ، ونحن نجتاز هذه المرحلة من تطورنا الحضارى ، الذى يتلفت فى أكثر من اتجاه ، يريد أن يخاطب المستقبل ، ويطمح الى التجديد ، ولكنه لا يريد أن يدير وجهه عن تراثه العريق ، فهو موضع فخره ، وأساس لأصالته . ونعود الى الشعر والشعراء ، وقد

تعرض ابن قتيبه لما يعرف بقضية القدماء والمحدثين ، وقد كان أكثر الدارسين القدماء يتعصب للقديم ، ولا يرى فى الجديد شيئا يستحق . هكذا وقف ابن سلام الجمحى عند شعراء الجاهلية ، والقرن الأول من الاسلام ، ولم يلتفت بأية درجة الى أولئك الذين جاؤوا بعد المائة الأولى ، فضلا عن معاصريه فى القرن الثالث . وهنا يتجلى فضل ابن قتيبه ، الذى يسجل موقفه من الشعراء المحدثين ، أو لنقل : من حركة التجديد ، فى مقدمته ، اذ يقول : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين » . هنا اعلان صريح عن استقلال الرأى ، وتحرر الاختيار من أسر الرأى الشائع . ثم يبدأ ابن قتيبه فى تأصيل رأيه بحجة منطقية واقعية معا تحترم حركة الزمن ، وضرورة التطور . ويبدأ من تخطيىء من يرون أن الماضى وحده ــ دون الحاضر ــ ينفرد بالصواب،

وبالأصالة ، وبالامتياز . يقول رافضا هذا الانتماء للماضى ، والتنكر للمستقبل . يقول : « ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص بها قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مقسوما مشتركا بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية فى أوله . فقد كان جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وأمثالهم يعدون محدثين ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا » . هكذا يبزغ فى فكر ابن قتيبه ، أهمية الاعتراف بفعل الزمن ، وضرورة الايمان بالتطور ، والتفاعل مع الظاهرات المستجدة . لكل عصر فنه ، ومن المحال الزعم بأن عصرا ، أو قوما، وهبوا وحدهم بلوغ الغاية فى كل شىء ، وليس أمام الآخرين ، أو المتأخرين الا أن يدوروا فى رحى التقليد .

ان اعتراف ابن قتيبة بمنطق العصر ، وحتمية التجديد ، ليس الا نصف القضية التى نرغب فى وضعها تحت الضوء ، وتأملها من منظور الواقع المرحلى الحضارى الذى نعيشه . لقد تعرض ابن قتيبة ، فى

المقدمة . الى خطوات قصيدة المديح ، كما جرى التقليد بين الشعراء ، فهى تبدأ بالوقوف على الأطلال ، ثم يكون هذا الوقوف مدخلا للغزل بتذكر أولئك اللاتى عشن جانبا من عواطفهن بين هذه الأطلال ، ثم يستدرج الشاعر سامعيه ، وقد اصطاد آذانهم ومشاعرهم بالغزل، فيرحل فى شعره ، أى يصف رحلته الى الممدوح وما عانى من قسوة منها ، ثم يأخذ فى المديح . هذه هى الخطوات التقليدية ، ولسنا الآن بصدد تعليلها أو نقدها ، وما يعنينا منها فى حدود ما نناقشه أن ابن قتيبة وضع شروطا أو توصيفا لكل خطوة من هذه الخطوات الأربع ، وحظر على الشاعر أن يغير فى أى شىء من الموروث . لقد كان الشاعر القديم يقف على الاطلال ، ويرى ابن قتيبة أن الشاعر الحديث ، اذا أراد أن يقف ، فلابد أن يقف على الاطلال ، ولا يحق له أن يقف على المنزل العامر أو الماء الجارى ، وكذلك لا يحق للشاعر أن يرحل الى ممدوحه على حصان أو حمار لأن القدماء رحلوا على بعير ... وهكذا !! لقد نظر بعض نقادنا المعاصرين الى هذا

الموقف الأخـير على أنه مناقض للموقف الأول ، ففى البداية اعترف بأنه لا حظر على التجديد ، وأن كل قديم كان جديدا فى عصره ، ثم ها هو ذا يرفض أيـة درجة من التغيير فى الموروث الفنى . والذى نراه .. أنه لا تناقض فى موقفى ابن قتيبـة . فقد أقر باختـلاف الأساليب مع اختلاف العصر ، هذا ما يدل عليه صراحة، كلامه الأول ، ولكنه يقول شيئا آخر جديدا تماما ، فى قوله الثانى ، لا يناقض ما قاله أولا .. انه يعرف أن الشاعر المعاصر له لا يقف أصـلا على الاطـلال ، ولا يرحل عمليا الى الممدوح ، لأنه يعيش غالبا معه فى نفس المدينة ، واذا فان الشاعر يمضى فى هذه الخطوات، اذا مضى ، من منطلق التقاليد الموروثة ، وليس من محاكاة الواقـع المتغير .. والموقف هنا أنه فى حـالة الاعتماد على الموروث ينبغى أخذه بمنطقه الخاص ، وفى صـورته الكاملة ، دون لجوء الى التلفيق ، بالأخـذ ببعضه ، واهمال بعض آخر ، هـذا ، أو الانصراف عنه بالكلية ، وهو ما يقبله ابن قتيبة أيضا .

لقد وضحت القضية الحاضرة الآن .. حين نعود

الى بعض فنون الماضى ، أو آدابه ، أو تقاليده . هل يحق لنا أن نختار منها ونلفق فيها ، أم أننا اذا لجأنا اليها ينبغى أن تؤديها بنفس صورتها التاريخية دون تعديل ؟ لقد أثير هذا حين أسست فرق شعبية تؤدى أغانى الماضى ورقصاته الحركية ، فوجد من يطعن فى توجه هذه الفرق ، بانها تمسخ الفن الشعبى ، لأنها ترتدى ألوانا ، تؤدى حركات على ألحان ليست هى تماما المأثور عن الماضى . ومثل ذلك يقال فيما يسمى بالقراءة الجديدة ، أو التفسير الجديد . لقد عالج حمد باكثير شخصية شهريار الأسطورية ، من منطلق المرض النفسى ، والكاتب السويسرى العبثى دورينمات صور شخصية هرقل باحثا عن عمل ، فلا يجد الا رفع النفايات من شوارع مدينة ثرية متكاسلة . فما مدى مشروعية هذه الأعمال ؟ بل اننا نجد التفسير الجديد يتسلل الى الأعمال الفنية ذاتها ، فتتقدم فى صور مناقضة لصورتها الموروثة : على سالم فعل ذلك فى كوميديا أوديب ، وهى فى الأصل مأساة دامية !!

علينا أن نصحح مفهومنا عن الموروث الحضارى ، فليست الحضارة تراكما كميا ، ليست تقاس بالامتداد فى المـاضى الذى قد يصير عبأ يقيد ، وليست تقاس بحجم الموروث الذى يمكن أن يصير ثقلا يجمد حركة التقـدم ، ويحول دون الانطـلاق الى المسـتقبل • الحضـارة الحقيقية فى علاقتهـا بالمـاضى تقوم على الانتقاء •• اختيار عناصر الحياة ، القابلة للاستمرار ، والنمو ، واحتضان آمـال المستقبل ، ومواكبـة حركة التاريخ • ان هـذا يعنى أن المـاضى ينبغى أن يظل دافعا نحو المستقبل وليس دونه ، وفى خدمة الحيـاة المتجددة ، وليس شحوبا فيها ، وما لا ينتمى الى هـذا التواصل الخلاق بين المـاضى والمستقبل ، فان مكانه التاريخ وحـده ، وليس له الحق فى تعويق مسـيرة التقدم•لقد اجتازت حضارتنا العربية الراهنة أو كادت، هذا الطور الحائر ما بين التلفيق بين المـاضى والمستقبل، أو بين الحضارة الأوربية وما ينتمى الى تراثنا الخاص •

وقد تغادر التلفيق الى التوفيق • وهـذا كله محدود الحظ من امكانية الاستمرار ، والحل الذى ارتآه ابن قتيبة لايزال صالحا للتطبيق•• الاعتراف بروح التجديد، وحق التطور فى الوجود ، ورفض التلفيق بأى درجة ، على أن تتذكر أن مبدأ الانتقاء ، لا يلتقى مع التلفيق ولا يرتضيه •

فاكهـة الخلفـاء

٢٣

منذ مسافة زمنية قصيرة ، أثيرت قضـية أدبية ، ذات بعد أخلاقي ، في بعض البلاد العربيـة ، وانقسم الرأى العام المثقف ، ومن الطبيعي أن ينقسم ، وأن يتجادل ما وسعته الحجة ، في مثل هـذه القضايا ، التي تمتد بجذورها الى تاريخنا الحضـاري ، وتزهر أفنانها في واقعنا المعاصر ، ومن ثم تخضع في قياسها لاعتبارات مختلفة . أثيرت القضية التي نعني ، حين أصـدرت جهة قضائية قرارا يمنع تداول احدى طبعات كتاب : « ألف ليلة وليلة » ، اذ حملت الطبعة المعنية بالقرار ألفاظا مكشوفة ، وأوصافا تخدش الحيـاء ، وتدخـل فيما يحظر نشره في منطق عصرنا وقيمه وحرصه على الآداب العامة ، ومنعه لكل ما من شأنه أن يثير الغرائز ، أو يغري بالرذيلة . ولكن كتاب « ألف ليلة وليلة » ليس ينتمي الى عصرنا ، انه كتاب تراثي ، انحدر الينا عبر

ألف سنة ، أو ما يقاربها ، وبهذه الصفة فانه اكتسب معنى الوثيقة التاريخية ، وهـذا يعنى أن منعه من التداول حجب لحقيقة تاريخية ، لا يملك أحد حجبها ، لأنها ملك التاريخ ، وملك الحضارة ، وملك العلم الذى يملك وحده حق اصدار الحكم عليها ، كما أن التصرف فى هذه الوثيقة بحذف مثل تلك الكلمات أو الأوصاف المعترض عليها للسبب المذكور ، تزييف لعمل اكتسب حق الوجود ، وتضليل للقارىء وللباحث عن الحقيقة ، كل الحقيقة ، كما أبدعتها عصور سلفت .

تلك كانت حجة الرافضين لتدخل أية جهة فى التراث العربى ، بالحظر أو التنقية من عبارات معينة ، أو التعديل . ولم يكن لدى القائلين بضرورة الحذف والتعديل غير القول بحماية الناشئة من دواعى الانحراف والاغراء . وهى حجة جديرة بالتقدير ، غير أنها تمس التراث ، وغير أن الانحراف والاغراء لا ينحصر فى كتب التراث ، بل انه لا يجد فرصته للانتشار بين الناشئة من خلال هـذه الكتب التراثية ، التى لا يقبل عليها — فى

العادة ــ الا نوع معين من القراء ، ليس البحث عن مصادر للاغراء والانحراف مما يشغلهم كثيرا . على أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كوثيقة تاريخية كاملة المحتوى ، لم يعد ملكا خاصا لبلد أو جيل ، انه واحد من الكتب العالمية ، التى أثرت فى جميع الثقافات المعاصرة ، وجميع الأجيال التى جاءت بعد ظهوره واكتماله . وهذا يعنى ــ فى حدود ما نقصد ــ اننا لا نستطيع كما اننا لا نملك حق اختصاره ، أو تعديله ، بهذه الدرجة أو تلك من التعديل .

ان ما أثير مؤخرا حول كتاب « ألف ليلة وليلة » لا يقف عند هذا الكتاب وحده ، انه يمس كثيرا من الكتب القديمة ، بعضها من حيث محتواه وغرضه العلمى ، أبعد عن احتمال وجود هذه الألفاظ التى اعترض عليها ، ومن آجلها صدر قرار منع التداول ، مع ذلك فان هذه الألفاظ موجودة ، بل منتشرة من كتب الطب ، الى قصص الحب ، الى دواوين الشعر ، بل فى كتب النوادر والأخبار ، بل فى شواهد النحو .

واذا فلن يصح — من الوجهة العمليــة — أن نجعل هدفنا العودة الى كل هذه الكتب لنمحو منها كل لفظ يرى فيه عصرنا أنه من هجر القول . وعلى أيه حــال فان أصحــاب القرار المشــار اليــه ، والذين أيدوه وتحمسوا له ، لم يقولوا بضرورة اخضاع التراث لهذه الغربلة أو الرقابة الأخلاقية ، ان جاز التعبير . لقد وقف القرار عند ألف ليــلة من منطلق أنه كتــاب واســع الانتشار ، وأن الفكرة الشائعة عنه تتضمن قدرا من التحريض على اقتنائه لغير الاطــلاع العلمى ، ولغير البحث والدرس ، ومن هنــا كانت أهميــة اخضاعه لهذا اللون من الرقابة .

هذه اذا القضية الحاضرة التى نرغب فى أن نطرحها للتأمل ، ونرى أنها ليست خاصة بألف ليلة ، حتى وان ارتبطت اثارتها به على المستوى العــام . وبين أيدينا كتاب آخر ، قد لا يبلغ درجــة ألف ليلة ، فى ألوانه الزاهية ، وعناصر تشويقــه المثيرة ، وخياله الطليق ، دلالاته النفسية والاجتماعيــة العميقة ، ولكنــه مع

هذا ، يبقى كتابا مهما ، جديرا بأن يقرأ ، وأن يقتنى ، وأن يخضع لدراسات متنوعة ، تعطي الكثير من الفائدة. الكتاب الذى نتوقف عنده اليوم عنوانه : « فاكهة الخلفاء ، ومفاكهة الظرفاء » ، ألفه أحمد بن محمد بن عربشاه ، الحنفى ، وهو من أدباء الشام ، فى القرن التاسع الهجرى . « وفاكهة الخلفاء » ثمرة سياحة طويلة فى بلاد الترك ، والفرس ، وغيرهما ، وثمرة معرفة مؤلفه ابن عربشاه ، بلغة الفرس والترك وغيرهما أيضا. ولقد وضع المؤلف نصب عينيه كتاب « كليلة ودمنة » فبنى خط الحكاية فى الكتاب على ما يرويه الحكيم حسيب ، من حكايات على لسان البشر ، والحيوان ، والطير ، والوحش ، والانس ، والجان ، والشياطين، فقصر عن ابن المقفع ، معرب « كليلة ودمنه » فى متانة أسلوبه ، ونقاء لغته ، وتراصف حكاياته ، وقدرة كل حكاية أن تكون مستقلة فى دلالتها ، مدمجة فى الدلالة الشاملة للاطار العام . ومع هذا التقصير ، فان فاكهة الخلفاء ، ومفاكهة الظرفاء أغزر مادة ، وأكثر قصصا ، وأطول نفسا ، وأدل على قيم العصر الذى أبدعه ،

وظروفه السياسية ، وملامحه الاجتماعية ، على الرغم من هــذا الفصل الأخير ، العاشر ، الذى كان سردا تاريخيا خالصا عن هجمة المغول على بلاد الشرق العربى ، ابان تيمورلنك ، وما ألحقوا بيــلاد المسلمين من أنــواع الدمار • وهذا الفصل خارج عن غاية الكتاب ، وأسلوبه على السواء •

ونعود الى قضيتنا الحــاضرة من خلال هــذا الكتاب ، فهو أيضا يتضمن قدرا ، وان يكن قليلا ، من هذه الألفاظ والأوصاف ، والحكايات ، التى اعترض عليها بالنسبة لألف ليلة وكتاب فاكهة الخلفــاء ومفاكهة الظرفــاء ، طبع ثلاث مرات فى صيغته الكاملة ، دون تعديل ، وأحدث طبعة مضى عليها نحو سبعين عاما ، ولم تكن المطبوعات ــ منذ سبعين عاما ــ تخضع لرقابة من النوع الذى اعترض على ألف ليلة ، ربما لأن المطبوعات لم تكن واسعة الانتشار ، ومن ثم واســعة التأثير على الجمهور العــام • بالنسبة للقضية المثــارة لنا رأى ، لا نقصد منه التوفيق بين فريقين مختلفين تجــاه نوع الكتب التراثية ، وانما نقصــد الحفاظ على جميع

الغايات النبيلة التى يتوخاها الانسان من الثقافة ، ومن المعرفة ، ومن الفن بشكل خاص . من هنا نرى أنه من الضرورى أن تبقى الصيغة التاريخية لأى كتاب فى أى عصر ، مهما كان وجه الاعتراض عليـه فى عصر لاحق ، ولو أننا سمحنا بفتح بـاب الحذف والتعديل استجابة لأى نازع مهما كان شرفه ونبالة مقاصـده ، فان عصرا آخر قادما ، بل عصورا ، سيكون لها مطالب من نوع آخر ، هذا احتمال ليس بالبعيد ، أو المستحيل، وهو يعنى فى النهاية أن يمسخ تاريخنا الثقافى ، وأن يزيف فننا وفكرنا تحت شـعارات التهذيب والتنقية ، وحماية الجماعة . غير أننا نرى ، أنه ليس ما يمنع من احاطة النسخة الكاملة لهذا السبب أ ولغيره بأسـباب تحد من انتشارها بين من لا يقدرون الحقيقة العلمية ، ثم تكون هنالك نسخة ، بل نسخ متدرجة فى الاختيار ، والتبسيط ، والتعديل ، لتتناسـب مرحـلة من عمر الناشـئة ، نعطيها ما يناسـبها ، وما يرضى تطلعاتها ،

ويرضى ما نأمله منها فى غدها • وهذا المبدأ معمول به فى ثقافات أخرى كثيرة ، هدفت الى توصيل التراث فى فترة مبكرة لأبنائها ، ومن ثم كان التبسيط والاختيار • كما هدفت الى الحفاظ على الحقيقة وجوهر الثقافة ومن ثم احتفظت بالنسخة الكاملة ، ولم تشعر بالتعارض بين الموقفين •

الخـــراج

٢٤

اذا جاء ذكر « التاريخ » ، أو تحدث البعض عن صفحة من صفحاته ، فان أذهان عامة الناس ، بل عامة المثقفين ، وربما أذهان بعض أهل الاختصاص ، تنصرف على الفور الى التاريخ السياسى ، تاريخ الملوك والسلاطين ، والفتوحات والمعارك ، وما الى ذلك من صور الصراع بين الأمم . وهـذا مفهوم قاصر ، من حيث لا يعطى المجتمع العام مكانته فى صنع الأحداث ، وفى التأثر بها أيضا ، ومن المؤكد أن المعارك الحربيـة ، وأن السلطة العليا المتولية تمثل مرحلة من الحسم فى الصراع ، ولكن تفاصيل الصـورة لا تقف عند المعركة ، أو عند الجالس على قمة السـلطة ، الا بمقدار ما تقف عند ملمح من ملامحها ، لا يحق له أن يختزل كافة هـذه الملامح . ومن هنا فان التاريخ الاجتماعى ينبغى أن يحظى بقدر أعظم من الاهتمام ، وكذلك التاريخ الاقتصـادى ،

فليس من شك فى أن الوضـــع الاقتصـــادى لعصر ، أو لدولة ، وراء كل العناصر الأخرى المؤثرة فى ازدهار العصر ، أو انهياره .

من هنا تتجلى أهمية كتاب « الخراج » لمؤلفـــه يعقوب بن ابراهيم ، المعروف بين الفقهاء بأبى يوسف ، تلميذ الامام أبى حنيفة ، وأبو يوسف عاش فى القرن الثـــانى الهجرى ، وعـــاصر أزهى عصـــور الخـــلافة العباسية ، فتولى القضــــاء لثلاثة من أعظم خلفائهـــا : الهادى ، وولديه : المهدى ثم الرشيد ، وهـــذا الأخير قد استحدث منصب « قاضى القضاة » واختـــار له أبـــا يوسف ، فهو بذلك أول قاضى قضاة فى الاسلام ، وفى ظله امتدت سلطة هـــذا المنصب ، حتى شملت الى جانب القضايا المدنية والجنائية التى كان يتولاها بطبيعة منصبه كقاض ، شملت الى ذلك : الفصل فى الدعاوى ، والأوقاف ، وتنصيب الأولياء ، والاشراف على الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المـــال .

لقد تنوعت خبرات أبى يوسف ، وزاد احتكاكه

بالحياة العملية ، ومعرفته بأسرار النظام الاقتصادي ، ومشـــكلات ادارة الدولة ، ســـــواء فى عاصمتهـــا ، أو أقاليمها القريبة والبعيدة . كما تنوعت مصادر معرفته الفقهية ، فكان تلميذا مخلصـــا لشيخه أبى حنيفـــة ، ولكنه أخذ عن غيره أيضا ، واتصل بأهل الحديث ، وأخذ بالقياس والاستحسان . فكان كتابه « الخراج » موســـوعة غير مسبوقة ، عن النظـــام المـــالى للدولة الاسلامية ، الثمرة الدانية الطيبة ، لهذه الخبرات الفقهية والعملية المتنوعة .

لقد ألف أبو يوسف كتاب الخراج استجابة لطلب من الرشيد ، ولهذا يوجه اليه الخطاب فى صدر كل باب . ولكن خصـــوص المناسبة لا ينفى عمومية الدافع وشمولية الفائدة ، وان الباحث المعاصر ليحتـــاج الى المعرفـــة بروح الاســـلام ، وعدله ، وأسرار انتشاره واستقراره ، من خلال الوعى بنظامه المـــالى ، وحكمه بين الناس فى مصالحهم اليومية ، أكثر من حاجته الى أن يعرف ذلك من خلال جوانب أخرى أشبعت بحثـــا

وكلاما ، حتى أصبح القول فيها معادا • فى حين بقى أسلوب الاقتصاد الاسلامى مجهولا أو كالمجهول ، الا عند خاصة الفقهاء •

ولكى نعرف المقصود بالخراج ، الذى اتخذ كتاب أبى يوسف منه عنوانا ، نقول انه الضريبة ، أو الايجار الذى يدفعه غير المسلم ، من الذميين ، عن الأرض المنتجة للمحاصيل ، أما ما يدفعه المسلم ، فيسمى العشر ، وهذا العشر بمثابة الزكاة على الزرع والثمار • وهكذا يلتزم المسلم وغير المسلم فى ظل الدولة الاسلامية بتحمل نفقاتها ، فى نظير حمايتهم ، مع اختلاف التسمية •

لقد تحدث أبو يوسف فى كتابه « الخراج » عن أقاليم محددة ، كأرض السواد بالعراق ، والجزيرة والشام ، وخراسان ، وغيرها ، وتجاوز ذلك ليتحدث عن نظام قسمة الغنائم ، وتوزيع الفروض ، أو الرواتب المخصصة للسابقين الى الاسلام ، وتطرق الى قضايا اقتصادية تسويقية ، كالغلاء ، وطبقية كالاقطاعيات التى يملكها كبراء الحكام فيما قبل الاسلام • بل تحدث عن

الجزر التى تظهر فى وسط دجلة والفرات ، عقب انحسار الفيضان ، وهو ما يطلق عليه فى عصرنا : أرض طرح النهر .

وهكذا نجد النظرة الشاملة ، والوعى بالمؤثرات القديمة والمستجدة على الحالة الاقتصادية ، وأهمية القرار من اجتهاد قائم على الوعى باحتمالات المستقبل ، ولهذا يعطى أبو يوسف صورة مفصلة عن القرارات الاقتصادية ، فى عهد الخلفاء الراشدين ، وبخاصة عمر بن الخطاب ، رضى الله تعالى عنه .

فيقول فى الفصل المخصص له : « ما عمل فى أرض السواد » : « افتتح عمر السواد والأهواز ، فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن ، فقال لهم : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية ، وأخذ الخراج من الأرض » . لقد كان بلال بن رباح ، وعبد الرحمن بن عوف يريدان تقسيم السواد ، فى حين رأى عمر وعلى وطلحة غير ذلك ، فقال عمر : « فكيف

أقسمه لكم ، وأدع من يأتى بغير قسم » ؟ ! وهكذا تم مسح السواد ، وتحديد الخراج على المساحة ونوع الغلة ، ان كانت زرعا أو نخلا أو كروما ... ويشير الى قسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفروض (وهى تقابل الرواتب أو الأعطيات) بين أصحابه . فحين جاءه مال البحرين ، أعطى كل رجل ما كان وعده به ، ثم قسم بقية المال بالسوية ، على الصغير والكبير ، والحر والمملوك ، والذكر والأنثى . ثم جاء أبو بكر فساوى بين الناس جميعا ، وحين قيل له ان بين الناس من لهم فضل السبق والجهاد . قال أبو بكر : ما أعرفنى بذلك ، وانما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة ، أما ابن الخطاب فقد كان له رأى مختلف ، يعتمد على تعليل مختلف بالطبع ، فقال عن سبب التفاوت فى الفروض : لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كمن قاتل معه . ولهذا فضل السابقين وقدماء المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر ، ومن جاهد جهادهم . جعل العباس وعليا قبل الجميع . أما عن تلك الجزر

التى تنشأ عقب انحسار الفيضان ، وتختفى بفيضان جديد ، مما نسميه الآن طرح النهر ، فقد اعتبرها أبو يوسف بمنزلة الأرض الموات ، من أحياها فهى له ، شريطة ألا يؤدى ذلك الى الاضرار بالآخرين .

وبعد .. فهذا قليل جدا ، من كثير جدا ، اشتمل عليه كتاب الخراج ، لأبى يوسف ، وكما يطرح هذا الكتاب قضية حاضرة ، هى تصحيح مفهوم التاريخ الاسلامى فى الأذهان بعامة ، فانه يضع تحت الضوء ، وينبه الى قضية أخرى ، فنحن الآن ، فى اطار الوعى الاسلامى المتنامى ، والاهتمام بالتراث ، فى حاجة ماسة الى اضاءة هذا الجانب من الفكر الاسلامى . حاشانا أن نقلل من أهمية الاهتمام بالعقيدة فى ذاتها ، كيف وهى الأساس لكل ما يجىء بعدها ، أو العبادات ، وهى فرق ما بين المسلم الحق ، والمسلم ظاهرا ، والحدود ، وهى سياج حرم الله سبحانه . ومع الاقرار بهذا كله :

فان الاهتمام بالنظـام الاقتصادى الاسلامى ، وتنويره ماضيا وحاضرا ، من أهم ما ينبغى الالتفات اليه ، ليس لتصحيح صـورة الحضارة العربية الاسلامية وحسب ، وانما لتأسيس نهضة اسلامية واعية ، قادرة على مناقشة قضـايا العصر ، من منطلق أخطر النظريات فى هـذا العصر ، التى تفسر كل شىء بالاقتصـاد وحـده . مما يستدعى بالضرورة أن نعرف بحق دور هـذا العامل الاقتصادى ، فى صناعة وتوجيه تاريخنا الاسلامى .

مفاتيح العلوم

٢٥

يبدو أننا فى هـذه الحلقة ، من كتـاب قديم ، وقضية حاضرة ، سنبدأ بالقضـية ، أولا ، لنعود الى الكتاب فى نهاية الحديث . والقضية ، فى عبارة موجزة ، قضية المصطلح العلمى ، وهى من أهم ما ينبغى أن نهتم به فى حياتنا الفكرية والثقافية العامة ، وفى تنمية مناهجنا العلمية بوجه خاص . كما أن قضية المصطلح تنعكس بشكل حـاد على قضية أخرى لا تقل عنها أهمية ، وهى تعريب العلوم ، أى تدريسها باللغـة العربيـة . فمن المعروف أن بعض التخصصات المهمة لاتزال تدرس فى جامعاتنا بوجه عام ، بلغة أجنبية ، هى الانجليزية غالبا، والفرنسية أحيانا ، من هذه العلوم الطب ، والهندسة ، والكيمياء ، والصيدلة ، وعلم الحيوان ، وربما غير ذلك ، وأكثر من ذلك . وللذين يصرون على تدريس هذه العلوم بلغة أجنبية حجة هى أن أهم مراجع هـذه

العلوم ليست بالعربية ، ومصطلحات هـذه العـلوم ـ أيضا ـ ليست بالعربية ، وأحيانا تصعب ترجمتهـا أو ايجاد المقابل العربى لها • لابد أن نسلم مبدئيا بأهمية المصطلح العلمى • من الممكن نقل المعرفة دون لجوء الى المصطلحات ، اكتفـاء بالوصف وتحديد الخصـائص العامة ، أو الوظيفة ، باستطاعة أستاذ التشريح مثلا أن يستغنى عن مصطلح « الشرايين » بعبـارة : أنابيب الدم ، ويضع كلمة « مخزن الطعام » بدلا من مصطلح « المعدة » • وباستطاعة الناقد الأدبى أن يتحدث عن الوحـدات المتكررة فى القصيدة ، بدلا من مصطلح « التفعيلة » مثلا ، وأن يشير الى انعكاس ذات الشاعر على القصيدة ، بدلا من مصطلح « التجربة الفنية » !!

هـذا كله ممكن ، ولكنه يؤدى لنتائج سلبية ، تؤثر فى دقة المعرفة ، وسـلامة المنهج العـلمى • ان المصطلح العلمى مثل قطعـة النقود ، لا اختـلاف على قيمته ، أى على مدلوله ، وفيه ميزة الاختصار • فاذا كانت « أنابيب الدم » تصلح وصفا للأوردة والشرايين ،

فان لمصطلح الأوردة دقة علمية ليست متوفرة لوصف « آنابيب الدم » . واذا كان الوصف بالوحدات المتكررة فى القصيدة يختلط فيه مفهوم التفعيلة ، بمفهوم المقطع الصوتى ، بمفهوم الشطر من البيت ، آو البيت نفسه ، فان مصطلح التفعيلة لا يلتبس بشىء من ذلك . وفضلا عن فضيلة التحديد الصارم التى تتحقق فى المصطلح العلمى ، ولا تحققها العبارة الوصفية ، فان فيه ميزة الاختصار ، وميزة أخرى تمس المنهج ، وهى تحديد خطوات التناول المنهجى لقضية علمية ، ولنفترض ــ كمثال للتوضيح ــ أن ناقدا يحلل قصيدة شعر ، أنه يمكن أن يفعل ذلك دون استخدام مصطلحات نقد الشعر ، ولكن المحاولة ستظل اجتهادية ، ويظل الوفاء بما ينبغى أن يحاط به فى تحليل قصيدة أمرا خاضعا للمصادفة . أما حين يعرف الناقد آنه لكى يستوفى القول حول قصيدة ، فان عليه أن يعرض للتجربة ، ومعنى الصدق الفنى والانفعال المسيطر ، والايقاع الشعرى ، والصور الشعرية ، والوحدة العضوية والبناء القائم على تفاعل العناصر ، حين يعرف

الناقد أن عليه أن يسر بجميع هذه الركائز فانه لا يكون قد اقترب من اللغة العلمية المنضبطة وحسب ، وانما حقق نقطة ايجابية أخرى : هى أنه استرشد بعلامات هادية ثابتة قادت خطاه فى الطريق الصحيح منهجيا ، ثم تبقى درجة التوفيق معلقة بمقدرة هذا الناقد على استخدام المصطلح والوعى به ، وهذه قضية أخرى بالطبع .

ان وضع المصطلحات العلمية يأتى تابعا للتقدم العلمى ، فالثقافة المتخلفة لا تصنع ، انها تستورد المصطلح كما تستورد العلم الذى أفرز هذا المصطلح ، ومن هنا تنبع صعوبة تعريب مصطلحات الطب والهندسة وعلوم الفضاء وغيرها ، فهذه العلوم ، فى هذا العصر ليست من ابداعنا ، لسنا أصحاب سبق فيها ، فنحن نتلقاها معبأة فى قوالبها الاصطلاحية ، ولن يكون من السهل تعريب مصطلحاتها ، ما لم نتحرر أولا من موقع تلميذ التابع فى دراستها والاحاطة بأسرارها .

هنا نصل الى الكتاب القديم ، الذى دفع الى

الضوء بقضية المصطلح العلمى وأهميته ، وصلة ذلك بالتقدم العلمى أصلا • وهو كتاب « مفاتيح العلوم » لمؤلفه الخوارزمى ، وهو كاتب باحث من أهل خراسان، اسمه محمد بن يوسف ، فهو غير الخوارزمى الرياضى• الذائع الصيت • وقد عاش صاحب كتاب « مفـاتيح العلوم » فى القرن الرابع الهجرى ، أى فى قمة الحضارة العربية الاسلامية ، فلم يكن غريبا أن يلتفت ـ كما التفت غيره ، قبله وبعده ، الى مصطلحات العلوم ، التى عبر عنها بحق ، بكلمة « مفاتيح » ، وهـذا يعتبر غاية فى الصدق والعمق ، فالمصطلحات هى مفاتيح المعرفة ، وهى مداخل تقل المعرفة ، بلغة لاتقبل الخلط أو النقص• فى عصـور القوة والازدهار ، لا تعبأ حضـارة الأمة أن تقتبس من الحضـارات الأخرى • أن تفتح جميعا أبواب المعرفة فى كل الاتجاهات ، ثم تقوم بهضمها ، واعطائهـا لونها الخـاص المميز ، دون شـعور غبى بالاستغناء والتعالى الذى يزين للجاهل جهله ، ودون شعور بالنقص يرضى به التابع أن يظل تابعا الى الأبد ، وكأن التخلف حكم القدر عليه ، لا فكاك منه •

لقد نقل المسلمون كثيرا من علوم الحضـارات السابقة على الحضارة العربية الاسـلامية ، نقلوا عن السريانيـه ، واليونانيه ، واللاتينيـة ، والفارسـية ، والهندية ، والعبريه ، نقلوا علوم المنطق والفلسفه . والفلك أو النجوم ، وألطب ، والصيدلة حتى الحكايات والأسمار ، نقلها العرب وغير العرب فى اطار الحضـارة الأسلامية ، واهتموا بنقل المصطلحات ، التى تجعل هذه العلوم واضحة المنهج والهـدف ، متميزة عن كل علم آخر ، ومع هـذا بقيت المصطلحات عربية ، لأن قاعدة المعرفة كانت عربية ، وبداية العلم أيضا كانت عربية ، بل ان فكرة المصطلح العلمى أساسا بدأت عربية بالنسبة للحضـارة العربية ، فحين وضـع المعنى الاصطلاحى للصلاة ، وهو غير المعنى اللغوى ، والمعنى الاصطلاحى للصـوم وهو غـير ما يراد من الصـوم لغة ، وحين استخدم مصطلح الجهاد ، والاستشهاد ، والهجرة ، والفتح وغير ذلك كثير ، فان شيئا جديدا مستمدا من طبيعة المجتمع العربى الاسـلامى كان يؤسس ، ويشكل العقل العام ، الذى أصبح مستعدا للتوسع فى استخدام

المصطلح ومن ثم ابتكاره ، مع اقبال عصر التدوين ، وظهور الاتجاهات الفكرية والمذهبية المتنوعة التى أثرت العقل العربى ، من خلال التفاعل ، وأذكت روح التقدم من خلال استصفاء واختيار الأكثر صلاحية وقدرة على مواكبة الحياة .

فى كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ، نجد خريطة الحضـــارة العربية الاسلامية مرسومة بأبهى الألوان ، وأزهى القسمات ، نجد نشاط النقل والترجمة ينافس ويغذى نشاط الابتكار والاضافة ، ولا يتهدده . ونجد النقلة يؤلفون أيضا ، ويضيفون ، بمعنى أن شرط الأصالة متوفر فيهم . ولهذا لم يتحولوا الى خــلايا غريبة فى مجتمعها ، انها على العكس ، يد لهذا المجتمع العربى الاسلامى ، وعين له ، تمتد الى بعيد ، بما توافر لها من استطاعة خاصة ، لكى تنتقى الأجود ، والأطيب، والأنفع ، تبذل فيه جهد المدركين لعظمة ما يفعلون ، وتقدمه الى أمتها العربية الاسلامية ، ليأخذ مكانه البناء فى عقلها وروحها وحركة تقدمها . حين تتساءل اليوم عن

مدى قدرتنا على تعريب العلوم ، ومصطلحات العلوم ، ينبغي أن نتساءل أولا : متى نستوعب تجربة المـاضى ، كى نصل الى ابتكار العلوم ، وتجديد ما ورثنا منهـا عن الآخرين ؟ ! هـذا هو الدرس المستفاد من قراءة ناقدة سريعة ، لكتاب ألف فى خراسان فى القرن الرابع الهجرى ، اسمه مفاتيح العلوم ، لرجل استحق أن يحفظه التاريخ ، اسمه : الخوارزمى .

مجمـــع الأمثـــال

٢٦

كتاب « مجمع الأمثال » لمؤلفه أحمد بن محمد :
أبى الفضل النيسابورى المعروف بالميدانى ، ليس أقدم كتاب جمع الأمثـال العربيـة ، ولكنه أجمع هـذا النوع من الكتب ، اذ احتوى على أكثر من ستة آلاف مثل ، انتشرت على مساحة زمنية تزيد على ستة قرون ، فقد توفى الميدانى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة للهجرة ، وليس باستطاعتنا أن نحدد متى بدأ استخدام الأمثال فهو فطرى فى النفس الانسانية ، التى جبلت ، وتميزت بالقدرة على نقل التجربة ، يلقنها جيل يرحل ، الى جيل يظهر ، فيضيف اليها ، وينقل هـذا التراث بدوره ، الى ما يليه من أجيال . وسنجد أمثالا ترتبط بمناسـبة يمكن تحديد موقعهـا التاريخى ، بعضـها جاهلى ، وبعضها يرجع الى ما تلا الجاهلية من عصور الاسلام ، وهذا جزء من القضية ، أو القضايا الحـاضرة المعاشة

التى يثيرها هـذا الكتاب الشهير ، وسنكتفى الآن بان نقول ان أحـدا لا يملك دليـلا جازما على الطريقـة أو التوقيت ، الذى شهد المثل الأول ، غير أن ذلك صار من خصـائص الحضارة الانسانية ، وضرب الله سبحانه فى كتابه مثلا ، بل أمثالا كثيرة فقال جل شأنه : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » . لقد أفاد الميدانى من جهود سابقيه ، الذين اهتموا بجمع الأمثال العربيـة ، ولكنه تفوق عليهم بشمول المحاولة، وسلامة الترتيب على الحروف الهجائية ، والحرص على ايراد المناسبة ، أو مضرب المثل ، مستمدا هـذا كله من معرفته الموسوعية التى تتوقف عند كتب الأمثال ، بل جاوزتهـا الى كتب الأخبـار والقصص ، والنوادر ، وموسوعات التاريخ ، ودواوين الشـعر ، وغيرها . ولهذا صار كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى ، أشـهر كتاب فى بابه ، عن جدارة ، وتجاوز اطاره الذى يفهم من عنوانه ، وهو العناية بتسجيل الأمثال العربيـة ، فى الطابع الموسوعى الشامل .

من هنا تبدأ القضية ، أو القضايا الحاضرة ..
وأعنى أننا ينبغى حين نعود الى قراءة التراث العربى ،
أن نتخلى عن تصنيفاتنا وتقسيماتنا الجاهزة ، التى تضيق
من أفق ادراكنا لمحتوى هذه الدراسات التراثية ، ومن
ثم تظل صورة العصور القديمة عندنا ناقصة أو محرفة:
ان لم تكن خاطئة .

ان كتاب « مجمع الأمثال » ، مهم بكل المقاييس
لدارس الأمثال أصلا ، وهذا أمر مفروغ منه ، ولكنه
مهم بنفس الدرجة للغوى ، والنفسانى ، وعالم
الاجتماع ، والمؤرخ ، ولدارس اللهجات ، ولعالم
الأكولوجى ، أو التبيؤ ، أى العلم الذى يرصد أصداء
البيئة وآثارها على الانسان فيها .

الى الآن ، لا تملك اللغة العربية معجما تاريخيا ،
يبين لنا متى استخدمت كلمة معينة لأول مرة ، فيما
ورثنا من نصوص أدبنا وفكرنا العربى ، لقد بذلت
محاولات محدودة لم تسفر عن ميلاد هذا المعجم الذى
يشعر اللغويون والمفكرون والأدباء بضرورته ،

ولا يستطيع جهد الفرد الوفاء بحقه ، ولم تتقدم مؤسسة أو مجمع علمي للنهوض بأمره ، وكل ما جرى حتى اليوم لا يزيد عن التمنى أو حسن النية . ان الأمثال تستطيع أن تشارك فى ايضاح هذا السبيل ، ولو أن باحثا رجع الى ما جمعه الميدانى ، وما ألف فى هذا الباب بعد عصر الميدانى ، فانه لاشك سيجمع قدرا هائلا من الأمثال التى ترتبط بمؤشرات تحدد تاريخ انتشارها ، فاذا ما رتبت هذه الأمثال ترتيبا تاريخيا ، فانها ستعين — ولو بدرجة ما — على تنوير فكرة المهتمين بالمعجم التاريخى . ومثل ذلك يمكن أن يتحقق على نحو آخر ، لو أن هذه الأمثال ذاتها أعيد ترتيبها على أساس جغرافى ، فوضعت أمثال كل اقليم على حدة ، والأمثال السائرة بين كافة الاقاليم على حدة . وهذه خدمة لهجية ، ونفسية لا تجحد ، ويمكن لعلماء البيئة ، أو التبيؤ أن يجدوا بعض ما يطلبون من آثار تشكل الانسان بمعطيات بيئته الطبيعية . فى كتاب « الأمثال الكويتية المقارنة » الذى عنى بجمعه وتبويبه ودراسته الأستاذان : صفوت كمال،

وأحمد البشر ، أعطى الجانب المقارن نموذجا فريدا ينبغي أن يحتذى ، لقد ظهرت آثار البيئات العربية الطبيعية فى تكوين مادة المثل ، وفى صياغته ، وفى القيم التى يعلى من شأنها ، ولو أن المحاولة وسعت ، واتخذ المثل العربى الموروث أساسا وليس فرعا ، فان الدارس اللغوى ، والمهتم بالبيئة على النحو الذى أوضحنا ، والعالم النفسانى ، يمكن أن يجد هؤلاء جميعا ، زادا وفيرا فى هذه الأمثال .

وكذلك يستطيع عالم الاجتماع ، والمؤرخ أن يجد تفاصيل دقيقة ، فى أمور عابرة ، قد لا تبدو مقصودة ، لكنها تضيف الى تصوراته للمجتمع ، أو المجتمعات العربية ، فى العصور التاريخية ، حياة واقعية ، لا يجد لها مثلا فى كتابات المؤرخين .

لنقرأ مثلا المناسبة التى قال فيها سهل بن مالك الفزارى كلمته التى صارت مثلا فيما بعد ، وهى : « اياك أعنى واسمعى يا جارة » . فهذا المثل شطر بيت، قاله مع بيت آخر ، وهما :

يا أخت خير البدو والحضارة
كيف ترين فى فتى فـزاره

أصبح يهوى حرة معطـاره
اياك أعنى واسمعى يا جـاره

أما أخت خير البدو والحضر ، التى يناديها « سهل الفزارى » فى بيتيه ، فهى أخت حارثة بن لأم ، سـيد طيء . مر سهل بدياره ، وطلب الضيافـة ، ولم يكن حارثة موجودا ، فقالت أخته لسهل : انزل فى الرحب والسعة ! فنزل ، فأكرمتـه ولاطفتـه ، ثم خرجت من خبائها ، فرأى أجمل النساء ، فكان البيتان بين التصريح والتلميح ، مما حملها أن تدافع عن نفسها ، حتى اعتذر اليها ورحل ، ثم عـاد ، فكان أن رجعت هى اليه ، وطلبت منه أن يخطبها من أخيها اذا كان لايزال راغبا فيها .. وقد كان . ان قصـة مثل هذا المثل تصحح بعض أفكارنا عن موقع المرأة فى العصر الجـاهلى ، وما كانت تتمتع به من اسـتقلال الشخصية ، حتى

تستضيف ، وتجير ، وترد على من يتقرب اليها ..
بالرفض أو بالقبول .

وهنالك مثل آخر ، مستخلص من حكاية الأسد والثيران الثلاثة ، فقد أوقع بينهم وأكلهم واحدا بعد الآخر ، فلما كان الأخير ، وهو الثور الأحمر ، طلب من الأسد أن يسمح له أن ينادي بأعلى صوته ، كرغبة أخيرة قبل أن يجهز عليه : « لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض » . ان الميداني يسند استخدام هذا المثل الى سيدنا على ، كرم الله وجهه . ولعل تدقيق هذه المسألة يصحح عندنا — في مجال آخر — فكرتنا عن قصص وحكايات الحيوان ، واذا صحت النسبة ، فان هذه الحكاية اذا كانت موجودة ، وتجرى على لسان فصيح مشهود له بالبيان ، قبل ترجمة « كليلة ودمنة » بنحو قرن من الزمان . ومن شأن هذا أن يتحفظ على الزعم بأن حكايات الحيوان عند الجاهليين كانت مختصرة ، لتفسير الأمثال فقط ، وسطحية .. ان هذه الحكاية ممتدة ، ومحبوكة فنيا ، وعميقة المغزى ، وهى

عربية خالصـة ، فلم تكن الثقافـة العربيـة فى عصر الراشدين الا عربية خالصة .

هـذه بعض القضايا الحـاضرة ، التى يمكن أن يثيرها كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى ، اذا ما قرىء بأفق متحرر ، ولم يحصر فى الاطار الظاهر ، وهو تجميع وتسجيل الأمثال ، وانما فى صورته وفنونه الموسعة .. الموسوعية .

كليلــة ودمنــة

٢٧

أما الكتاب القديم ، فهو كتاب « كليلة ودمنة » الذى نقله الى العربية عبد الله بن المقفع ، فى منتصف القرن الثانى الهجرى . نقله عن الفهلوية ، التى كانت قد نقلته بدورها عن الأصل الهندى . وقد اكتسبت النسخة العربيــة أهمية عالمية ، اذ فقد الأصل الهندى وظل موضع ظنون وتخمينات الى عصرنا هــذا ، كما كانت الترجمة الفارسية مفقودة أيضا ، فانتهى الوضــع الى اعتبار الترجمة العربية أصلا لهذا الكتاب الهام ، لحقب طويلة ، وهكذا حملت النسخة العربيــة مسئولية الحفاظ على هذا الكتاب وتقديمه الى طلاب المعرفة . ومتذوقى الفن القصصى ، وعلماء الأخــلاق والسياسة عبر العصور . ويكتسب « كليلة ودمنة » عندنا أهمية اضافيــة ، فهو نموذج راق للنثر الأدبى ، ترك أثــره الواضح فى أساليب الكتابة الأدبيــة ، وأصبح مثــلا

يحــاكي عند الشغوفين بالبيــان ، وباللغة الصافيــة ، وبالجزالة ، التي تناى عن اللفظ الحوشي ، والمهجور الغريب ، وتترفع عن استخدام العامي المــألوف ، الذي استهلكه الدوران على الألسنة . هــذا ، فضــلا عن أن « كليلة ودمنة » مسئول ـ من الناحية الفنية ـ عن تأسيس الحكايات المتداخلة ، في تسلسل وتكامل يحكمه اطار شــامل ، أو قصة رئيسية ، تقوم مراحلها على عدد كبير من القصص والحــكايات ، التي تتبادل فيهــا الشخصيات الانسانية والحيوانية السؤال والجواب . ونذكر هنــا بصفة خاصة كتــاب « الصادح والباغم » لابن الهبارية ، وكتــاب « فاكهة الخلفــاء ومفاكهــة الظرفاء » لابن عربشاه . وقد ظهر أثر « كليلة ودمنة » في هــذين الكتابين بوضوح يتجــاوز الشــكل ، الى المحتوى الوعظي التعليمي ، أيضا .

وكتاب « كليلة ودمنة » ـ في مجموعه ـ قضية حاضرة ، وستظل حــاضرة ما دامت أخــلاق الأفراد ، وسلوك الجماعات ، وعلاقــات القوى الفاعلة في أي

تكوين بشرى ، موضع درس وتحليل من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفسانيين • وستظل حاضرة ما بقيت اللغة عنصرا جماليا مطلوبا ، لترقية الذوق وتوجيه السلوك • وستظل حاضرة طالما اهتم النقاد والدارسون باللغة الفنية ، ومستويات التعبير ، وقد أشار ابن المقفع — فى مقدمته — الى وظيفة ثلاثية يقوم بها كتاب « كليلة ودمنة » ، وهذه الوظيفة الثلاثية ليست موجهة لشخص واحد ، وانما لثلاثة أشخاص مختلفين ، أو ثلاثة مستويات من القراء : فالحكماء يختارونه لحكمته ، يستخلصون منه أسرار النفس ، ودوافع السلوك ، وآداب الحياة الاجتماعية بين الطوائف المختلفة ، من الملوك الى السوقة ، والسخفاء يقرأونه للهو ، لما فيه من حكايات مسلية طريفة ، ومفاجئات مشوقة ، فهؤلاء السخفاء — كما سماهم ابن المقفع ، ونقول البسطاء ، فانها أخف وطأة وأليق بآداب عصرنا ، يكتفون بالحوادث الظاهرة ، بالجانب الترفيهى ، دون الغوص وراء ما ترمز اليه • بعد مستوى الحكماء والبسطاء ، يأتى المستوى الثالث ، وهم

المتعلمون ، وهم يقبلون عليه لعلمه ، ويسره فى الحفظ . بمعنى أن هذا الصنف من قراء « كليلة ودمنة » يطلب فيه المعلومات ، وهى كثيرة ، وتروقه لغته الصافية الجزلة ، فيحفظ منه ما تيسر لخفته . وابن المقفع يعود الى الاشارة الى هذا النوع الثالث ، المتعلمين ، فيقول فى عبارة دقيقة ، ترسم أفقا بعيدا لهدف تربوى رصين :

« فاذا احتنك الحدث ، واجتمع له أمره ، وثاب اليه عقله ، وتدبر ما كان حفظ منه ، وما دعاه فى نفسه ، وهو لا يدرى ما هو ، عرف أنه قد ظفر من ذلك بكنوز عظام » .

هكذا تتدرج مستويات المعرفة ، مع مستويات الخبرة ، وتنمية الدربة ، فيكفى الصبى أن يحفظ . وأن يعى الحوادث التى قرأها ، فاذا احتنك ، أى اكتمل عقله ونمت خبرته ، فانه سيصل بنفسه الى المستوى الأعلى فى ادراك ما كان قد حفظ ، وما وعى .

هذا الامتداد التربوى فى مقدمة « كليلة ودمنة » ، الذى أضافه ابن المقفع ، جدير بأن نضعه تحت الضوء ،

فان أهم ما يعنى به حاضرنا قضايا التربيـــة وأساليب التعليم ، وقد شغف أكثرنا بالنظريات الغربيـــة فى هذا المجال ، ولا عيب فى ذلك ، فالعزلة الفكرية أشد خطراً، ولكن : هل خلا التراث العربى من الاهتمام بالتربية ؟ ان آراء الغزالى وابن ســينا ، وابن طفيل ، وغيرهم واضحة فى رسائلهم وكتاباتهم الفنية . فماذا يمكن أن يضيف ابن المقفع الى جهود هؤلاء ؟

لقد قسم مستويات الادراك الى ثلاثة ، حددها بعبارات تناسب موضــوعه ولغة عصره : الحكمــاء ، والبسطاء ، والمتعلمين . ورأى أن المتعلمين اذا أحسنوا أن يتعلموا فانهم يرتقون الى مستوى الحكماء ، حين تكتمل تجربتهم ، وتنمو عقليتهم . ولكن : كيف يتم لهم هذا ؟

يحدد ابن المقفع فى مقدمته المشــار اليها خمسة مبادىء تربوية ، يراها ضرورية لكى يتحول المتعلم ، او يرتقى الى مستوى الحكمة ، فيجنى الثمرة الطيبـــة للمعرفة ، ولا يظل مجرد صورة ناطقة من كتاب مسطور .

أما هذه المبادىء الخمسة ، فهى : أولا : جودة القراءة ، والتثبت من المعانى ، وتنظيم المعلومات ، فى كل مرحلة ، لا يجاوزها المتعلم الى ما يليها حتى يتم له هذا . يقول : « فليس ينبغى أن يجاوز شيئا الى غيره حتى يحكمه » .

والمبدأ الثانى ضرورة وضع المعرفة النظرية موضع التطبيق ، ليس بالنسبة للآخرين ، بل بالنسبة لطالب المعرفة نفسه ، بعبارة أخرى ، لابد أن تتحول المعرفة النظرية الى سلوك ، الى عمل ، تقول عبارة ابن المقفع : « العلم لا يتم لامرىء الا بالعمل ، والعلم شجرة ، والعمل هو الثمرة » . فلنتأمل صدر كلمته : « العلم لا يتم لامرىء الا بالعمل » فكأن عمل العالم بمقتضى علمه داخل فى مفهوم أنه عالم ، وليس فى هذا القول مبالغة ، أو نزوع نحو المثالية ، فهنا رؤية منهجية موضوعية ، لأن اخضاع المعرفة للتطبيق العملى هو بذاته اختبار لصحة المعرفة . وتصحيح لما قد تكون الأفكار الذهنية المجردة قد أغفلته أو غفلت عن بعض عواقبه ، كما أنه ليس من المستطاع انكار أن العالم

العامل بمقتضى علمه أقدر على اقناع الآخرين والتأثير فيهم ، بل أقدر على نقل ما يعرف الى الذين لا يعرفون، من موقع القدوة ، من عالم ، أو عارف يعزل معرفته عن سلوكه ، والأقسى من ذلك أن تناقض معرفته سلوكه .

أما المبدأ الثالث فيطلب تحديد هدف لكل عمل ، ولكل معرفة ، وعبارته تقول : « وينبغى لمن طلب أمرا أن تكون له غاية ينتهى اليها » . ولاشك فى أن تحديد الأهداف لأى عمل ، هو بمثابة حراسة له من الانحراف ، والتشتت ، وضياع الجهد . ويتصل المبدأ الرابع بالهدف أيضا ، اذ يرى ضرورة وضع حدود ومعالم لكل عمل ، لا يجوز تخطى هذه الحدود ، أو التقصير عنها « فان من جاز الحد كمن قصر عنه » ، فهذا هو « المنهج » ، فى لغة التربويين والعلماء ، و « الخطة » فى لغة الاداريين ومصممى المشروعات ، فاذا ما أحكم المنهج ، ودرست الخطة وأقرت ، فانه لا يجوز التقصير فى التنفيذ ، ولا المبالغة فى الأداء ، لأن هذا سيعنى أن الخطة لم تكن دقيقة .

وهكذا أخيرا يتحقق المبدأ الخامس ، وهو استخدام القياس والتنظير فى تنمية المعرفة ، وتوجيه السلوك ، وتنشيط العقل لاستخدام القياس ، هو بذاته بناء للقوة المفكرة ، لأعز قوى الانسان وأشرفها ، لأنها منة الخالق سبحانه وهبته العظيمة لتسيير الحياة ، وتيسير الحياة ، وترقيتها .

قواعد الأحكام فى مصالح الانام

٢٨

الكتاب القديم الذى نعنى به ــ فى هذه الفقرة ــ ألفه فقيه ذائع الاسم واللقب ، لمنزلته فى الدراسات الاسلامية أولا ، ولشدة أثره فى سياسة عصره ، وقضايا مجتمعه ، وهو الشيخ عز الدين ، أو العز بن عبد السلام ، الملقب بسلطان العلماء . وقد عاش جل عمره فى القرن السابع الهجرى ، فعاصر الحروب الصليبية ، والهجمة المغولية ، فى الشام ومصر ، وكانت له مواقف عظيمة ، هى بذاتها منهاج رشيد لما ينبغى أن يكون عليه سلوك العالم العامل ، فى علاقته بربه ، وبعلمه ، وبنفسه ، وبحكام عصره ، وبجماعة المسلمين من حوله . أما الكتاب الذى نؤثره من بين مؤلفات سلطان العلماء ، العز بن عبد السلام ، فهو كتاب « قواعد الأحكام فى مصالح الأنام » . ومع أن العز ــ رحمه الله ــ كان فقيها شافعيا ، فانه كما يكشف تفكيره فى

هـذا الكتـاب ، كان مفـكرا متحررا ، لا يستعبده التقليد ، مع أنه كان فى صميم عصر التقليد ، ولا يقوده المذهب ، رغم شـدة الحرص على المذهب ، والتعصب له فى تلك المرحلة المتراجعة من تاريخ الفكر العربى .
يعبر الشيخ عن وعيه العميق هـذا ، فى رسالة الى الملك الأشرف ، فيقول : « ان أصول الدين ليس فيها مذهب، فان الأصـل واحد ، والخلاف فى الفروع » . ولهذا كان يجتهد ، ولا يحرجه أن يعترف بخطـأ اجتهـاده فيرجع فيه ، ومما يروى فى ذلك أن رجلا استفتاه فى مسألة ، فأفتاه برأى ، ثم تبين له الخطـأ ، وكان الرجل قد انصرف ، ولم يكن الشيخ يعرفه ، فبعث من ينادى فى شـوارع دمشق : يا أيها النـاس . من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام فى المسألة الفلانيـة ، فليعلم أن الجواب غلط ، وليأت ليسمع الجواب الصحيح !!

وبعد .. فما هى القضية الحـاضرة التى يثيرها كتاب « قواعد الأحكام فى مصالح الأنام » ؟ انها ماثلة فى العنوان ، ونعنى اتخـاذ « المصالح المرسلة » سبيلا

للاستحسان ، أو القياس ، ومن ثم الاجتهاد فى بعض الأحكام الشرعية على هـذا الأساس . وقبل عصر العز بقرون كانت المصلحة أساسا لاستحداث أحكام ليست فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية ، وروعى فيها أنها خير للاسـلام والمسلمين . مثل استخلاف أبى بكر لعمر ، وعدم استخلاف عمر لشخص معين ، فقد نظر كل منهما لما فيه المصلحة . ومثل جمع القرآن فى عهد أبى بكر ، وقد ضمن على الصناع ، والأصل فيهم أنهم أمناء على ما تحت أيديهم ، وقال : « لا يصلح النـاس الا ذاك » . لقد استخدمت « المصلحة » كثيرا ، دون تحديد للفظ كمصطلح أصـولى ، لم يتحدد الا حين بدأ التأليف فى علم أصول التشريع ، ولكن ينبغى أن نحدد المجـال الذى يمكن اعمالها فيه ، ومن الواضح أن العقائد لا تحتمل شيئا من ذلك ، لا مجال للتجديد فى العقيدة ، لأن قواعـدها أرسيت على يد الرسـول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الأمر بالنسبة للآداب ، من حيث هى فطرية ، نابعة من ادراك النفس السـوية المهتدية . واذا فان مجـال الاجتهاد اعتمادا على قاعدة

المصلحــة سيتجه الى ما يستجد فى الحيــاة المستمرة المتطورة ، أو المتغيرة ، من أمور تتعلق بالمعامــلات ، وبالتنظيم الاجتماعى ... فهنا ينبغى أن يكون هدف التفكير الفقهى ما يحقق مصــالح الناس ، فيجلب لهم منفعة ، أو يدفع عنهم مضرة ، لأن الشريعة فى عمومها ، وفى روحها ، لم تنزل الا من أجل هذا .

ان موقف الشيخ العز ، من قاعدة المصالح المرسلة، فى كتابه « قواعد الأحكام » واضح تماما فى اعتبارها ، والأخذ بها . اذ جعلها قاعدة يدير عليها آلاف المسائل الفرعية ، وركيزة للأحكام التى تفرعت عنهــا ، فأعاد الكثرة الى الوحدة ، وظهرت أهداف التشريع فى كتابه هذا متناسقة ، موحدة الهدف والاتجاه ، فكأن مصالح الأنــام هى القاعدة التى يجب أن تدور عليها الأحكام وجودا وعــدما ، وليس فى هــذا خروج على روح التشريع أو مراميــه ، فذلك متعين بقوله تعــالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ويقول الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا ضرر ولا ضرار » .
ويرى العز أن الله سبحانه شرع للانسان ما يقوده الى الخير ، وما يبعده عن الشر ، وأن وظيفة الانسان هنا أن يطيل النظر حتى يصل الى الاستنتاج السليم ، الذى هو فطرة الله . يقول الشيخ : « كل تصرف جالب لمصلحة ، أو دارىء لمفسدة فقد شرع الله من الأركان والشرائط ما يحصل تلك الشرائط المعقودة الجلب بشرعه ، أو يدرأ المفاسد المقصودة الدرء بوضعه ، فأحكام الاله كلها مضبوطة بالحكم ، محالة على الأسباب والشرائط التى شرعها » . ويضيف العز هنا ما يعمق فكرته ويوضحها ، حين يستخرج من الشريعة شواهد على أن الأحكام قد تبدو متناقضة جريا مع هذه القاعدة ، أى جلب المصلحة ، ودرء المفسدة ، فليس فى الشريعة حكم مطلق الا اذا كانت فائدته مطلقة ، يقول الشيخ : « اعلم أن الله تعالى شرع فى كل تصرف من التصرفات ما يحصل مقاصده ويوفر مصالحه ، فشرع فى باب ما يحصل مصالحه العامة والخاصة . فان عمت المصلحة جميع التصرفات شرعت تلك المصلحة فى كل

تصرف ، وان اختصت ببعض التصرفات شرعت فيما اختصت به دون ما لم تختص به ، بل قد يشترط فى بعض الأبواب ما يكون مبطلا فى غيره ، نظرا الى مصلحة البابين ، ولذلك شرط التوقيت فى الاجارة ولو وقع التوقيت فى الزواج لأفسده ، لمنافاته لمقصوده » . ويمضى العز الى خطوة أبعد ، وأهم ، حين يحدد مصادر التشريع النقلية ، ودور العقل فيها ، فيقول : « أما مصالح الدارين وأسبابها ومفاسدها ، فلا تعرف الا بالشرع ، فان خفى منها شىء طلب من أداة الشرع ، وهى الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس المعتبر ، والاستدلال الصحيح . وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها ، فمعروفة بالضرورات والتجارب ، والعادات ، والظنون المعتبرات . فان خفى شىء طلب أدلته . ومن أراد أن يعرف المتناسبات ، والمصالح ، والمفاسد ، راجحهما ، ومرجوحهما ، فليعرض ذلك على عقله ، بتقدير أن الشرع لم يرد به ، ثم يبنى عليه الأحكام ، فلا يكاد حكم منها يخرج عن

ذلك الا ما تعبد الله به عباده ، ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته » •

هذا دور العقل فى استنباط الأسباب ، وكذلك للفطرة الانسانية دور لا يجحد ، ان تقديم الأصلح فالأصلح ، ودرء الأفسد فالأفسد مركوز فى طبائع العباد ، نظرا لهم من رب الأرباب • والعالم العامل الملازم لشرع الله هو الذى يستطيع اكتشاف ما ينبغى القول فيه اعتمادا على معايشته المستمرة لنصوص الشرع ، وتشكيلها لفكره ، وتكوينه ، وأهدافه •

وبعد ••• فان قضية فتح باب الاجتهاد تحتاج الى اهتمام • واذا كان اتخاذ المصلحة آساسا للاجتهاد ليس موضع تسليم من أصحاب المذاهب على مستوى واحد ، فانه آساس يحتاج بدوره الى اهتمام ، وبخاصة اذا أحيط بالعناية والوضوح اللذين رأينا جانبا منهما ، فى كتاب قواعد الأحكام ، للعز بن

عبد السلام ، وان باستطاعة قاعدة المصلحة أن تمد حياتنا الاسلامية الحديثة ، بمشكلاتها المتداخلة التى نعرف ونلمس ، باستطاعتها أن تنير السبيل الى كثير من المصالح المهدرة ، والمفاسد المقررة ، التى ينبغى على جماعة المسلمين أن تحرص على ما يحقق لها الخير ، ويبعد عنها كل شر •

كتاب الأذكياء ... والحمقى

٢٩

تتميز وقفتنا هـذه المرة بأمرين ، أننا سنورد اسم المؤلف كاملا ، كما جاء على غلاف كتبه الكثيرة ، وهذا سيعطينا بداية القضية الحاضرة الأولى ، وأننـا سنعرض لكتابين قديمين لنفس المؤلف بالطبع ، وليس لكتاب واحد ، وهذا سيعطينا بداية القضية الحاضرة الثانية . اسم المؤلف ـ كما نجده على أى غلاف من مؤلفاته العديدة : « الشيخ الامام ، العالم ، العامل ، الورع ، الزاهد ، الفاضل ، وحيد دهره ، وفريد عصره، شيخ الاسـلام والمسلمين ، بقية السلف الصالحين ، أبو الفرج ، عبد الرحمن ، بن على ، بن الجـوزى . رضى الله عنه » لن نشغل أنفسنا بمحـاولة اكتشاف ، من الذى أضاف كل هذه الأوصاف والألقاب العجيبة ، لفقيه زاهد ، اسمه ابن الجوزى ، وبصرف النظر عن الصـدق والدقة ، أو المجاملة والمبالغة ، فان هـذه

الطريقة كانت من تقاليد عصره ، والعصور التالية ؛ واذا كان شيء منها يتسرب الى أغلفة الكتب التراثية في عصرنا ، فللحفاظ على أمانة التاريخ ، وربما عبر هذا الصنيع عن شعور عميق بالاجلال والتوقير لصناع هذا التراث . أما كتابا ابن الجوزى ، فهما : كتاب الأذكياء ، وكتاب عنوانه : « أخبار الحمقى والمغفلين » . وهما ليسا أهم ما ألف ابن الجوزى ، فله كتاب : « ذم الهوى » الذى عنى فيه بايراد آيات من القرآن الكريم ، وأحاديث للرسول عليه السلام ، وما لا يحصى من أقوال الأنبياء والحكماء والزهاد والوعاظ ، ومن نوادر العشاق ومجانين العشق ، يهدف بها أن يذم الهوى بلسانها ، ولسنا ندرى هل تمكن من بلوغ هذه الغاية ، أو ــ من حيث لا يظن ــ أغرى قارئه بعكس ما يريد ؟ ! المهم أن هذا الفقيه قد تطرق الى موضوعات تتميز بالندرة والطرافة ، ومنها كتاباه عن الأذكياء ، والحمقى والمغفلين . ومع تضمن المحتوى في هذين الكتابين لعدد وفير من النوادر والطرائف والقصص ، فانه عنى بالجوانب العلمية الموضوعية ، لتفسير الذكاء ،

عضـويا ، ونفسيا ، ووراثيا ، وكذلك تفسير الغفلة والحمق . ان العقل منـاط التكليف ، يروى عن ابن عباس حديثا قدسيا ، قال : لمـا خلق الله العقل ، قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له أقبل ، فأقبل ، قال وعزتى ما خلقت خلقا قط أحسن منك ، فبك أعطى ، وبك آخذ ، وبك أعاقب » . وفى هـذا الحديث القدسى يبدو العقل ، أو القوة المفكرة مصـدر الحركة فى الكون ، بالزيادة والنقص ، وسبب الثواب والعقاب . فما هو العقل ؟ قال أحمد بن حنبل : العقل غريزة . وقال المحاسبى هو نور ، وقال آخرون : هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات ، وقال أعرابى : العقل لب اغتنمته بتجريب . وليس بين هـذه الأقوال تعارض ، فالعقل استعداد فطرى مركوز فى الانسان ، وهـذا القدر الفطرى هو الذى يملك ، ويعمـل فى حدود التمييز بين الممكن والمستحيل ، وهو ما عبر عنه بالفصل بين حقائق المعلومات ، وما يزيد عن هـذا هو ثمرة التجربة ، والخبرة ، التى تستمد اما عن طريق التعليم النظرى، أو الممارسـة العملية ، وكلاهما ينطبق عليهما

وصف التجريب . ثم يقول ابن الجوزى : « حد الذهن قوة النفس المهيأة ، المستعدة لاكتساب الآراء ، وحد الفهم جودة التهيؤ لهذه القوة ، وحد الذكاء جودة حدس من هـذه القوة ، تقع فى زمـان قصـير غير مهمـل » . لا نريد أن نسرف فى اللجؤ الى هـذه التعريفـات المجردة ، ويكفى أن نشـير الى ان ابن الجوزى ، بهذه التفرقة بين الذهن كاستعداد فطرى ، والفهم كمقدرة على التركيز والتوجيه الارادى لقوة الذهن ، والذكاء كقـدرة على اسـتعادة المعـلومات المختزنة ، واستيعاب الجديد على ضوء هـذه الخبرة المـاضية فى زمن يسير جداً ، نشير الى أن ابن الجوزى بصنيعه هذا ، سـواء وافق ما انتهى اليه النفسانيون المحدثون ، أو اختلف عنهم ، وان كانوا هم أنفسـهم يختلفون كثيرا فيما بينهم ، بل يندر أن يتفقوا ، يعد من مؤسسى الدراسات السيكولوجية فى التراث العربى، ونحن نقدمه كقضية حاضرة لأصحاب هذا الاختصاص ، كى يعودوا الى ما كتبه فى « الأذكياء » و « الحمقى » و « المغفلين » ، ولعلهم يضمون اليهما كتابـه الآخر

« ذم الهوى » ليروا كيف يفسر السلوك الانسانى ؛ وكيف يصـــور حركة الفكر وعلاقات القوى والحواس بما يصدر اليها من مركز التوجية ، أو العقل • ويشير ابن الجوزى الى ما قرره لا مبروزو من بعده بألف سنة ، وهو اتخاذ الصفات العضوية دليلا على الأخلاق النفسية . فيقرر أن الخلق المعتدل ، والبنية المتناسـبة دليل على قوة العقل ، وجودة الفطنــة ، واذا غلظت الرقبة دلت على قوة الدماغ ووفوره ، ومن كانت عينه تتحرك بسرعة وحدة فهو مكار محتال لص ، واذا كانت العين صغيرة غائرة فصاحبها مكار حسود ، ومن كان نحيف الوجه فهو فهم مهتم بالأمور ••• الى آخر هذه الأقوال التى تصح وتخطىء ، ويمكن الاعتراض عليها بسهولة ، كما اعترض على لامبروزو من بعد ، وما يهمنا هو التنبيــه الى امكان وجــود علاقــة بين التركيب العضــوى ، والمتجــه النفسى أو الأخــلاقى ؛ وهو ما لا يمارى فيه عالم ، وان اختلفت الآراء التفصيلية •

لقد مضى ابن الجوزى فى « الأذكيــاء » وفق منهج طريف ، وله دلالة علميــة سيكولوجيــة ، فقد

عقده فى أبواب ، خص كل واحد منها بطائفة معينة .
يورد أمثلة من أقوالها وأفعالها التى تنم على الذكاء ،
فبعد الأســاس النظرى الذى أشرنا اليه ، يعقد بابا
خاصا للنبى عليه الســلام ، وآخر لصحابته ، وثالثــا
للخلفاء ورابعا للوزراء ، وهكذا مع القضاة ، والحجاب ،
والشرطة ، والعباد ، والعلماء واللصــوص ، والعامة .
وغيرهم ، بل يصل الى أصناف من الحيوان ، فى مقدمتها
القرود والكلاب . وبهذا التقسيم يدلل ابن الجوزى
ـ اذا صح ما نستنتجه ـ أن المهنة ، أو النشاط العملى
الذى يمارسه المرء ، له دخل فى تنمية الذكاء ، وتوجيه
نوعية هــذا الذكاء ، فليس من شــك فى أن ذكــاء
المحارب ، أو الزاهد مثلا ، يختلف كثيرا عن ذكاء اللص ،
أو عقلاء المجانين ، كما يسميهم ، حتى مع الاقرار بوجود
الذكاء أصلا ، كما أنه بهذا التقسيم ذاته ، دلل على أن
الذكاء ليس وقفا على مهنة ، أو طبقة ، أو جنس . بل
ليس وقفا على الانسان ، على الأقل فى الحدود التى
شرح بها مفهومه للذكاء . ثم يؤلف ابن الجوزى ـــ
كتابه عن الحمقى والمغفلين ، ذاكرا فى أسباب اقباله على

هـذا الموضوع أن الذكاء نعمة ، وأن قراءة ما كتبه
عن الأنقص فى الذكاء أو معدومه تدفع الانسان السوى
الى شكر ما انعم الله به عليه من العقل ، ثم يذكر أن
مطالعة أخبار المغفلين تحث على اتقاء أسـباب الغفلة ،
اذا كان ذلك داخـلا تحت الكسـب ، وعامـله فيه
الرياضة ، وأما اذا كانت الغفلة مجبولة فى الطباع فانها
لا تكاد تقبل التغيير . هـذه اذا معالم رؤية عربيـة فى
الصحة النفسية ، والسلامة العقلية ، نتعرف عليها بعد
ألف عام ، وما أحرانا أن نتدبرها ، وأن نحيى من الوعى
بها ما تتأكد صحته من الناحية المنطقية ، والتجريبية .
وبذلك يأخذ هـذا العالم الكبير مكانه خارج دائرة
أصحاب النوادر والقصص ، التى حكم عليه بها من
خلال نظرة عجلى غير منصفة لتراثنا العظيم . لقد كان
ابن الجوزى شيخا ، فقيها ، قرأنا أمام اسـمه ألقاب
الزهد ، وصفات الورع ، ومع هـذا فانه تطرق الى
مجالات ثقافيـة ، وفنية ، وعلمية ، حول العشـق ،
والحب ، والجنـون ، وما وقفنـا على جوانب منه :
مما يتعلق بالذكاء والحمق ، وهـذا هو رجل الفقه ،

ورجل الدين الحق ، لا يغلق عقله عن معرفة ، ولا يلجم مواهبه عن ارتياد حقول جديدة ، وهو اذ يقبل على هذه المجالات غير المألوفة ، بخبرته بالنصوص الدينية، ومعرفته الفقهية الواسعة ، ومرانه الذهنى فى مقارعة الحجج ، ونقض الأدلة ، يمكن أن يقدم لهذه الدراسات الجديدة نتائج وانجازات مبتكرة ، لا تتنافى وصفات الزهد ، وألقاب الورع ، بل لعلها تؤكدها ، فالعلم شجرة واحدة ، والانسان هو الموضوع الجدير بأن تتجه اليه جهود العلماء مهما اختلفت منابعهم الثقافية ، واتجاه هذا الشيخ الزاهد الورع الى مثل هذه الموضوعات يدل على رحابة الفكر ، ومرونة الرأى ، وصدق البصيرة ، وهكذا يكون المفكرون العظام .

عطف الألف المألوف على اللام

المعطوف

٣٠

جرى عرف الاستخدام لكلمة « المحبة » على أنها عاطفة انسانية . ولكن هذا الاستعمال الشائع ، والمتبادر الى الذهن ، لا يعتمد على أساس من العلم ، فالمحبة لا تصدر عن الفكر وحده ، وهو ما يتميز به الانسان ، كما أنها لا تصدر عن العاطفة أو الاحساس الذى يجمع ، أو يشترك فيه الانسان وسائر الكائنات الحية ، من حيث هى حية ، تتحرك ، وتتوالد ، وتدافع عن نفسها ، وتلتمس أسباب راحتها ولذتها ... بالغريزة دون تفكير . ان « المحبة » عند أصحاب النظرة الفلسفية ، المتسمة بالشمول ، تتعدى الفكر ، والعاطفة، لتكون قوة كامنة فى الأشياء ، حتى الجامدة منها ، وهذه القوة تؤدى بالنسبة للأشياء دورا شبيها بالدور الذى تؤديه المحبة بالنسبة للبشر أو لفصائل الحيوان الراقية ، انها سر البقاء ، والحفاظ على سلامة الكون ،

لقد فسر هؤلاء الفلاسفة مدارات النجوم ، وتوازن الأفلاك ، بالمحبة بين هذه الكواكب ، فسروا الجاذبية الأرضية بأنها نوع من المحبة . وهذا التصور الفلسفي ينبع من نظرة مثالية ، تريد أن تعيد التعدد الى الوحدة ، وأن ترى فى كل شىء معنى عاقلا أو معقولا .

ومثل هذه الآراء فى المحبة ، تسللت الى الفكر الفلسفى الاسلامى ، فنجد لها آثرا فى بعض الدراسات الطبية ، أو الفلسفية ، أو التى مزجت الطب بالحكمة ، وقد نعثر على أصداء لها عند بعض المتصوفة ، لكنها ــ ومهما كان حجم وجودها ، لا تمثل جوهر المفهوم الاسلامى للمحبة ، التى ظلت مرتبطة بالارادة ، وصادرة عن فكرة . وتبعا لذلك فان الفكر العربى ، فيما يتعلق بهذه العاطفة ، اتخذ موقعا عند واحد من نوعين ، فاما أن تكون المحبة ظاهرة انسانية ، لا تعدو حدود الأحوال البشرية المشهودة من أهلها ، من الحيرة عند مشاهدة جمال المخلوق ، أو المحبوب ، ومن تعلق القلب به ، والألم عند فراقه أو هجره ، واما أن تكون المحبة ــ وهذا هو النوع الثانى ــ كما رآها أهل

التصوف ، مجرد خطوة ، يبدأ بها الصوفى على طريق التخلية والتحلية ، تخلية القلب عما عدا الله سبحانه ، وتحليتــه بذكره سبحانه وتعــالى ، فمحبة الجمــال المخلوق ، فى البشر كما فى الطبيعة مرحلة أولية فى سلوك السالك يجب أن يرتقى منها الى محبة خالق الجمال سبحانه ، وهــذه هى المحبة الحقيقية ، أما محبة البشر فهى مجازية ، وليست حقيقية . ونلاحظ على هــذا التقسيم التقليدى لنوعى المحبة ، أمرين ، أولهمــا أن كثيرا من العلماء رفض التصــور الصوفى الذى يرى فى عشق الجمال البشرى خطوة تقود الى محبة خالق الجمال ، ان محبة الله سبحانه ـــ عند هؤلاء العلماء ـــ تقوم بقلب العبد مستقلة عن أى شــعور مادى ، مهما وصف بالرقى ، أو التجرد من أمشاج المــادية وآثارها ، وثانيهما أن هنــاك فجوة واســعة بين نوعى الحب ، البشرى والالهى ، ومن ثم تكون مظنــة الانتقال من الأول الى الثــانى قابلة للعثرات والنكسات . ولكى تمتلىء هذه الفجوة أشــار الشعراء والأدباء والمتصوفة الى الحب العــذرى ، كمنطقــة وســطى ، أو أرض

مشتركة ، بين العاطفة البشرية بإيحاءاتها المـألوفة ، والحب الالهى القائم على ايمان عميق بحكم القادر ، وصبر لا حدود له على ارادة الله وما يبتلى به عبده من أنواع الاختبار . ان المحب العـذرى يتعلق بامرأة ، ويردد اسمها فى شعره وحديثه ، ولكنه لا يسعى الى نيل متعة ، ولا يدبر لقاء خاصة ، وانما يتخذ صـورة هذه المحبوبة : منطلقا لتأملات ، وترقيات ، فى المشاعر ، حتى يتجاوزها هى ذاتها ، وتجتمع نفسه وفكره حول عاطفة الحب فى ذاتها ، ناسـية أو متناسية تلك المرأة التى كانت الباعث ، أو نقطـة الانطـلاق لكل هـذه التأملات ، والترقيات ، وهنا نلاحظ أمرا آخر ، فعلى كثرة قصص الحب العذرى ، وتزاحمها فى المصـادر القديمة نجد تشكيكا مستمرا فى مدى صحتها وصدقها لا تكاد تسلم قصـة واحدة من غمزة هنا ، أو تشكيك هناك ، وبخاصـة حين تقاس العلاقـات الاجتماعيـة القديمة بمقاييس عصرنا . قـال أحد الأدبـاء ساخرا : قيس بن عم ليلى ، وأسرته أثرى وأعرق من أسرتها ، ولو ذهب الى أسرتها خاطبا فانهم لابد يرحبون به .

أذكروا لى سببا منطقيا واحدا يجعل قيسا بدلا من أن يذهب ليخطب من أحب ، يقف ليقول فيها الشعر الذى يفسد عليه كل شيء ؟ ! وآخر يقول : من أين لهم الحب العذرى وأكثرهم كانوا من الرعاة يعيشون نين الطبيعة ، التى تعلم الانسان كل شيء بصراحة !! وثالث يجرد الحب العذرى من نبله وتجرده من المادة : ليقول ان المحب العذرى رجل أنانى ، يريد أن يظل متوترا ، قلقا ، ليستديم عاطفته ملتهبة نابضة ، وكثير من العذريين بامكانهم أن يتزوجوا ممن أحبوا ، ولكنهم لم يفعلوا ، بدافع من هذه الأنانية !! واذا ، والخلاصة ، أن تقسيم الحب الى عذرى ، ومادى لم يحل المشكلة ، لم يملأ الفجوة بين الحب البشرى والحب الالهى ، الى أن قرأت هذا الكتاب القديم ، ذا الاسم أو العنوان الغريب : « عطف الألف المألوف على اللام المعطوف » ألفه أبو الحسن ، على بن محمد الديلمى ، من متصوفة القرن الرابع الهجرى . وقد وضع فى هذا الكتاب ، العلاقة بين الحب البشرى ، والحب الالهى فى ترتيب ، وصورة جديدة تماما ، لا تتردد فى

اعتبارها انجازا فكريا ونفسيا عظيما ـ تستقل به النظرة أو النظرية العربية الاسلامية الى الحب : عن كافة التأثيرات الوافدة عليها من الاغريق أو غيرهم من أصحاب الفلسفات القديمة ، وتقترب ، بل تتوافق وأصول المعتقدات الاسلامية التى تنظر الى الكبير المتعال ، سبحانه ، على أنه لا يشارك خلقه ، ولا يشاركه خلقه فى صفاته . ان الديلمى يبدأ من التقسيم التقليدى ، فهناك حب بشرى ، وحب الهى ، ولكن كيف يتصور العلاقة بين الحبين ؟ يقول فى كتابه : « عطف الألف المألوف على اللام المعطوف » : « واعلم أننا انما بدأنا بذكر المحبة الطبيعية ، لأنه منها يرتقى أهل المقامات ، الى ما هى أعلى منها ، حتى ينتهى الى المحبة الالهية » الى هنا يتشابه كلام الديلمى ، مع كلام سائر الصوفية ، وهو ما رفضه الفريق الآخر ، غير أنه يبدأ بشرح كلامه ، بما يجعله مقبولا ، بل جديدا ، وعلميا ، بكل مقاييس الصدق . يقول : « وقد وجدنا النفوس الحاملة لها (يقصد النفوس الحاملة للمحبة الالهية ، وهى الدرجة الأعلى والأرقى) اذا لم

تتهيأ لقبول المحبة الطبيعية ، لا تحمل المحبة الالهية ، فاذا هيئت بلطف التركيب ، وصفاء الجوهر ، ورقة الطبيعة ، وأريحية النفس ، ونورانية الروح ، قبلت المحبة الطبيعية ، ثم ارتقت وطلب كما لها ، والوصول الى غايتها ، والارتقاء الى معدنها فنازعت أصحابها وهم المحبون ، فأزعجتهم ، حتى ترتقى بهم الى الالهية ، درجة درجة ، كلما قربت درجة ازدادت شوقا الى ما فوقها ، حتى تصل الى الغاية القصوى » نراجع هذا الاقتباس من كلام الديلمى على ضوء العلم الحديث، انه لم يجعل أصحاب المحبة الالهية صنفا خاصا متميزا عن البشر ، أو أعلى ، تلك هى البداية ، علاقة السوية الانسانية ، والاستعداد الطبيعى لبذل المحبة .

أحاديث كثيرة أشارت الى المحبة للناس والاحسان الى الخلق ، وتفريج كرب المكروبين ، وكلها ألوان من الحب ، تعبير عن الحب ، وهدفها فى النهاية القربى الى الله سبحانه ، من هنا يكون الحب البشرى بمثابة اعلان عن وجود الاستعداد الفطرى لترقية العاطفة ، وتخليص المحبة من شائبة المنفعة ، لتكون خالصة لله ، وفى الله

وحده . هـــذه رؤية جديدة ، لعاطفة فطرية قديمة . متأصلة ، متجددة ، عاطفة الحب ، يفسرها الديلمى فى « عطف الألف المـــألوف على اللام المعطوف » من منظور نفسى يعتمد على أنماط الشخصية الانسانية ، وتميز كل نمط بنوع من القدرات الذهنية والشعورية. ولهذا فان تفسيره ، ورغم مرور أكثر من ألف عـــام على كتابه القديم ، يبقى هـــذا التفسير قادرا على منحنا فكرة جديدة ، يرضاها العلم ؛ ولا يرفضها الايمان .

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف
ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا
تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في
تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشباب. للأسرة
كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها
عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال
الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل
مواطن ومكتبة لكل أسرة.. وإنني لأرى ثمار هذه
التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت
وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة
المتجددة.

سوزان مبارك



